روايات مصرية للجيب

الغريب

وقصص أخرى

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

أهداب .. (قصة قصيرة)

اسمها جذب انتباهى ، وخلب لبى ، وأثار اهتمامى ، منذ أوّل لحظة سمعته فيها أذناى ..

وقبل حتى أن أراها ..

(أهداب) ..

اسم غير مألوف ، لم أعرف أنثى قبلها تحمله قط ..

اسم خيالى ، رومانسى ، رقيق ، خلاّب ، يطلق لخيالك العنان فور سماعه ، ويلهب مشاعرك ، وأنت تردّده فى أعماقك ..

ومنذ سمعت اسمها ، وقبل حتى أن أعرف من هى ، وجدت كل ذرة فى كيانى تتلهّف لرؤيتها وتعرُّفها ..

ولكن الظروف لم تتح لى هذا أيامها ..

كنا نعمل فى شركة واحدة ، ولكن فى فرعين مختلفين ، يفصلهما نصف العاصمة تقريبًا ، وكلانا يشغل المنصب نفسه ، فى الفرع الذى يعمل به ، وساعات العمل لنا واحدة ، مما جعل اللقاء شبه مستحيل !

لذا ، فقد ألقيت الأمر كله خلف ظهرى ..

أو أننى قد حاولت هذا ..

وبمنتهى الجدية ..

لست أدرى لماذا بدا هذا عسيرًا ؛ فأنا لم ألتق بها أبدًا ، ولم أسمع حتى صوتها ، أو أعرف هيئتها ..

كل ما عرفته هو اسمها ..

ولكن ذلك الاسم الفريد صادف هوى غير طبيعى فى نفسى ، حتى لقد انشغلت به طوال الوقت ، كما لو أننى أحب صاحبته ، أو أعشقها منذ زمن طويل ..

ومضت الأيام ، واسم (أهداب) يداعب خيالى ، ويعزف لحنًا رقيقًا فى أعماقى ..

بل ، لقد رسمت لها صورة فى أحلامى ..

صورة جمعت كل جمال ورقة ونعومة الأنثى ..

صورة تتفق مع رومانسية اسمها الساحر الجميل ..

وفى أحلامى ، رحت أقضى أجمل الأوقات ، مع (أهداب) الساحرة ، التى صنعها خيالى ، فى أبهى صورة أنثوية ممكنة ..

زرنا كل مكان ..

نعمنا بكل لحظة حب ..

وكل لحظة عشق ..

فى أحلامى وحدها ..

والعجيب أن عالم الأحلام هذا قد أنعشنى ، وملأ كيانى كله ، حتى لم أعد أشعر بذلك الفراغ العاطفى ، الذى كنت أحيا فيه من قبل ..

و ....

وفجأة ، أتى ذلك اليوم ..

كنت أجلس إلى مكتبى ، منهمكًا فى مراجعة بعض الملفات المهمة ، عندما ارتفع رنين الهاتف الخاص بى ، فالتقطت سمَّاعته بحركة آلية ، قائلاً :

ـ عبر العالم للسياحة .. من المتحدِّث ؟!

تسلَّل إلى أذنى ، بكل رقة الدنيا ، صوت أنثوى ساحر ، يتساءل :

ـ هل يمكننى أن أتحدَّث إلى الأستاذ (أشرف) ؟!

أقسم إننى لم أسمع ، فى حياتى كلها ، صوتًا أكثر رقة وعذوبة من هذا ، حتى إن لسانى قد عجز عن النطق مشدوها لبضع لحظات ، قبل أن يتكرَّر ذلك الصوت الساحر ، بلهجة حملت شيئًا من الحذر والقلق :

ـ هل يمكننى هذا ؟!

انتفض جسدى فى نشوة ، ووجدت نفسى أهتف فى حماسة :

ـ أنا (أشرف) .. من المتحدِّث ؟!

كاد قلبى يتوقَّف ، من فرط الانفعال ، وهى تجيب ، بأرق أصوات الدنيا :

ـ (أهداب) .

فوجئت بلسانى يهتف :

ـ مستحيل !

ردَّدت هى بدهشة :

ـ مستحيل ؟!

ارتبكت ، وأنا أقول فى سرعة :

ـ معذرة .. ربما أخطأت التعبير فحسب ، فأنا أحـ.... أقصد أسمع عنك منذ زمن ، ولكن ....

لم أستطع إكمال عبارتى ، وانحبس لسانى فى حلقى ، وقلبى يخفق فى عنف ، حتى إن الصمت قد ساد خطوط الهاتف بضع لحظات ، قبل أن تقول هى فى قلق :

ـ أستاذ (أشرف) .. أما زلت معى ؟!

هتفت بحماسة عجيبة :

ـ بكل جوارحى .

سمعت على الطرف الآخر شهقة دهشة ، ضاعفت من ارتباكى وتوترى ، فغمغمت :

ـ أعنى أننى رهن إشارتك .. ماذا تطلبين ؟!

مضت لحظة من الصمت ، بدت لى أشبه بدهر كامل ، وخشيت معها أن يتوقَّف قلبى عن النبض ، قبل أن تجيب هى برصانة رقيقة :

ـ هناك مشكلة عدم توافق بين فرعينا .

تحدَّثت معى لعشر دقائق ، حول تلك المشكلة ، التى وافقتها عليها ، وأيَّدت رأيها فيها بشدة ، ثم وعدتها بالتعاون معها ، على أى وجه تراه ، لتجاوز الموقف كله ..

ولكن الأهم من كل هذا ، هو أننى حصلت منها على موعد ..

موعد عمل ، لمناقشة المشكلة ، فى مكتبها هى ..

ولم يغمض لى جفن ليلتها ، على الرغم من كل محاولاتى للنوم ..

على الأقل لكى أحلم بها ..

كالمعتاد ..

ولكن يبدو أن انفعالى كان جارفًا ، إلى الحد الذى منعنى

من النوم ، وإن لم يمنعنى من أن أعيد رسم صورتها فى ذهنى ، على نحو أجمل ..

وأجمل ..

وأجمل ..

وقبل أن ينبلج الصبح ، كانت قد تحوَّلت إلى نجم باهر الحسن والجمال ، وأنثى لم يجد الزمان بمثلها قط ..

كان موعدنا فى العاشرة ، ولكننى كنت أمام المبنى فى التاسعة إلا الربع ..

ولن يمكنكم أن تتصوَّروا كم بدت لى الفترة المتبقية على موعدنا ..

لقد مرَّت فى بطء رهيب ، حتى لقد شعرت وكأن الثانية قد أصبحت ساعة ، والدقيقة شهرًا ، والساعة دهرًا كاملاً ..

وفى العاشرة بالضبط ، كنت داخل المكتب ، أخبر سكرتيرتها باسمى ، وبموعدى معها ..

مع معبودتى ..

معبودة خيالى ..

وخلال الدقائق القليلة التى انقضت ، ما بين دخول

السكرتيرة إلى حجرتها وعودتها ، كنت أستعيد صورة تلك الأنثى المذهلة ، التى صنعها خيالى ..

« تفضّل يا أستاذ (أشرف) .. »

كل خلية فى جسدى انتفضت انفعالاً ، عندما نطقت سكرتيرتها عبارتها تلك ، وهى تشير بيدها إلى باب مكتبها ..

مكتب (أهداب) ..

وبكل صعوبة الدنيا ، دفعت قدمىَّ نحو مكتبها ، ودخلته ، و ...

« أهلاً يا أستاذ (أشرف) .. »

مع الصوت الرقيق الوديع ، الذى نطقت به عبارة الترحيب ، انتفض قلبى بين ضلوعى بمنتهى العنف ..

واتسعت عيناى عن آخرهما وهما تحدقان فيها ، مع نهوضها من خلف مكتبها ، واتجاهها نحوى مباشرة ، مع ابتسامة كبيرة ..

وتحطَّم شىء ضخم فى أعماقى ..

أو فى قلبى ..

وخيـــالى ..

وأحلامى ..

فـ (أهداب) ، لم تكن تشبه (أهداب) ..

مطلقًا ..

(أهداب) ، التى اتجهت نحوى ، ومدَّت يدها لتصافحنى ، بابتسامة ترحاب كبيرة ، لم تكن تشبه ، من قريب أو بعيد ، وبأى حال من الأحوال ، (أهداب) الأخرى ، التى صنعها خيالى ، واستضافتها أحلامى طويلاً ..

لم تكن قبيحة ، ولكنها كانت فتاة عادية ..

عادية أكثر مما يمكن تصوّره ..

وبخاصة مع اسمها ، وصوتها بالغ الرقَّة والعذوبة ..

وأعترف أن هذا قد صدمنى ..

وبمنتهى العنف ..

صدمنى حتى إننى لم أشعر بيدها الممدودة إلىَّ ، وأنا أحدّق فى وجهها بشىء من الذعر ، جعلها تتضرَّج بحمرة الخجل ، وتغمغم فى ارتباك :

ـ أستاذ (أشرف) !!

بلغ ارتباكى وحرجى عشرة أضعاف ما أصابها ، عندما انتبهت إلى فداحة ما فعلت ، وخلوه التام من أدنى قواعد الذوق واللباقة ، فرحت أعتذر بشدة عما بدر منى ، وأؤكّد أن الدهشة قد أصابتنى فحسب ؛ بسبب تشابهها المدهش مع إنسانة عرفتها قديمًا ..

ولقد تقبَّلت هى اعتذارى برقة مدهشة ، ولباقة تحسد عليها ، بل وسعت لتخفيف الموقف ، قبل أن تتجاوزه بسرعة ، لنبدأ فى مناقشة تلك المشكلة ، التى اجتمعنا بشأنها ..

ولكن إحساسى بتأنيب الضمير لم يفارقنى قط ..

صحيح أن صورتها لم تتفق قط ، مع تلك التى صنعها لها خيالى ، إلا أن هذا ليس خطأً ارتكبته ، أو جريمة اقترفتها هى ، حتى أحدّق فى وجهها بكل هذا الذعر ..

ثم إنها ما زالت رقيقة ، على نحو يخلب اللب أيضًا ..

ولقد انتهى اجتماعى بها بعد ساعة واحدة ، واتفقنا على عقد اجتماع آخر فى مكتبى ، فى بداية الأسبوع التالى ، وغادرتها صامتًا ، ولكن الشعور بتأنيب الضمير لم يغادرنى قط ..

لقد لازمنى فى عناد وإصرار ، حتى مساء اليوم ، فرحت ألوم نفسى بشدة ، وأعاتبها على ما أسأت به لرقتها وأدبها ..

وأكثر ما حزنت له ، هو أننى لم أحصل على رقم هاتف منزلها ، أو هاتفها الشخصى المحمول ، حتى أعتذر لها مرة أخرى ، قبل أن أسمح لنفسى بالنوم ..

والعجيب أننى ـ وعلى الرغم من كل ما أشعر به ـ نمت ..

نمت وحلمت بها ..

بـ (أهداب) التى صنعها خيالى ..

(أهداب) المثالية ، الساحرة ، الخلاّبة ، جميلة الجميلات ..

وفى صباح اليوم التالى ، وفور وصولى إلى مكتبى ، اتصلت بها ..

لأعتذر ..

ولقد استقبلت صوتى وكلماتى بهدوء رقيق ، وراحت تؤكد لى ، للمرة الثانية ، تقديرها للموقف ، وعدم ضيقها منه ، ثم لم تلبث أن ضحكت ، فى عذوبة مدهشة ، وهى تضيف بنفس الرقة ..

ـ صدقنى يا أستاذ (أشرف) .. لقد اعتدت نسيان كل شىء فور انتهائه .

ارتحت كثيرًا لضحكتها الصافية ، التى أكّدت لى أنها لاتحمل أية ضغينة تجاهى ، فرحت أتحدّث معها حول مشكلتنا المشتركة ، وطال حديثنا ، حتى فوجئت بسكرتيرتى تدلف إلى الحجرة ، هامسة فى قلق :

ـ هناك عميل مهم على الخط الآخر .. إنه يحاول الاتصال بهاتفك الشخصى منذ أكثر من ساعة ، ولكنه مشغول باستمرار ..

انتبهت عندئذ فقط إلى ما حدث ، فاعتذرت لـ (أهداب) ، وأنهينا الاتصال ، وإن تعمّدت ترك نقطة مفتوحة للنقاش ، تتيح لى الاتصال بها مرة أخرى ..

وتعدّدت اتصالاتنا اليومية ، وأنا استمتع كثيرًا بصوتها الرقيق وحديثها العذب ، وإن راح خيالى يمزجه دومًا بتلك الصورة الوهمية المثالية ، التى صنعها لها ، وكأننى لم أرها حقيقة بعد ..

حتى فى أحلامى ، ظلّت (أهداب) الوهمية حية ، مفعمة بالجمال والحيوية والنشاط ، وإن اكتسب صوتها رقة وعذوبة صوت (أهداب) الحقيقية ..

فقط حتى تصبح الصورة مثالية تمامًا ..

ثم التقيت بها فى مكتبى ، واجتمعنا لثلاث ساعات كاملة ، قبل أن نتخذ قرارًا مشتركًا بأن نلتقى كل أسبوع ، مرة فى مكتبى وأخرى فى مكتبها ؛ لتذليل كل العقبات ، وإيجاد صيغة للتعاون المشترك بيننا ..

ولقد حافظنا على هذه اللقاءات ، لمدة شهرين كاملين ، قبل أن أنتبه فجأة إلى حقيقة مدهشة ، لست أدرى كيف لم أنتبه إليها من قبل ..

لقد سقط الحاجز ..

الحاجز الذى يفصل (أهداب) أحلامى، عن (أهداب) واقعى..

إننى لم أعد أحلم بمن صنعها خيالى، بل صارت ملكة واقعى هى نفسها إمبراطورة خيالى وأحلامى ..

ملامحها مازالت عادية، ولكنها أصبحت فى أحلامى، وواقعى، وأيامى، أجمل ملامح فى الوجود كله ..

رقتها، ونعومتها، وعذوبتها جعلتنى أحبها ..

أعشقها ..

أذوب فى هواها ..

اجتماعاتنا الأسبوعية أصبحت أجمل وأسعد أيام حياتى ..

بل أصبحت هى حياتى ..

الحقيقية ..

ولم أضع وقتًا طويلاً ..

فى أوّل اجتماع لنا، بعد أن أدركت حقيقة مشاعرى، رحت أتطلّع إلى وجهها فى هيام وأضحك، جعل وجهها

يتضرّج بحمرة الخجل، ودفعها إلى تحاشى التقاء عينيها بعينىّ طوال الوقت، حتى انتهى الاجتماع، فسألتنى سؤالها المعتاد، ونحن نفترق متصافحين :

ـ أين سنلتقى، فى المرة القادمة ؟!

أمسكت يدها الرقيقة بين أصابعى، وأنا أقول فى خفوت :

ـ أتعشّم أن يكون هذا فى منزلك .

انتفضت يدها بين أصابعى، وهى تهتف :

ـ أستاذ (أشرف) !!

ملت نحوها، متسائلاً :

ـ هل يمكننى أن ألتقى بوالدك ؟!

هتفت مرة أخرى، وقد تضرّج وجهها بحمرة قانية :

ـ أستاذ (أشرف) !!

حاولت أن تجذب يدها الرقيقة من بين أصابعى، ولكننى تشبّثت بها، وأنا أميل نحوها أكثر، قائلاً :

ـ آنسة (أهداب) .. صدقينى .. لم يعد يطيب لى العيش، عندما أكون بعيدًا عنك .

أشاحت بوجهها فى خجل شديد ، وشعرت بيدها ترتجف بين أصابعى ، فاتسعت عيناى فى ذعر ، وانتقلت الارتجافة إلى قلبى ، وأنا أسألها :

ـ أهناك شخص آخر ؟!

هتفت بسرعة :

ـ مطلقًا .

سألتها فى وجد :

ـ ما رأيك إذن ؟!

صمتت بعض الوقت ، وكأنما أعجز الخجل لسانها عن النطق ، قبل أن تقول فى خفوت بالغ الرقة :

ـ لست أدرى .

همست فى هيام :

ـ هل تفكرين فى الأمر على الأقل ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، فى خجل شديد ، وهى تجذب يدها من بين أصابعى فى رقة ، فأفلتتها ، وتركتها تهرع مغادرة مكتبى ..

وأدركت لحظتها كم أحبها ..

لقد هرع قلبى خلفها ، وراح يخفق ، ويخفق ، ويخفق ، حتى عدت إلى منزلى ، وأويت إلى فراشى ، وكل ذرة فى كيانى تحلم بها ..

بـ (أهداب) ..

وتفجَّر فى أعماقى سؤال ، بدا لى وكأن مصير حياتى كله يتوقف على جوابه ..

تُرى هل ستوافق ؟!

هل ستقبلنى زوجًا لها ؟!

لم يكن باستطاعتى حتى تخيُّل الجواب بالنفى ، فأغلقت عينى فى قوة ، وأنا أدعو اللّه (سبحانه وتعالى) أن أفوز بها ..

وعلى الرغم من توترى الشديد ، بذلت قصارى جهدى ، لأغوص فى نوم عميق ، لعلى أحلم بها ، على الأقل حتى أتشبث بـ (أهداب) ..

أهداب الأمل .

* * *

(تمت بحمد اللّه)

ليس كل مرة

(قصة قصيرة)

« والآن ، ماذا سنفعل ؟! »

نطق مساعدى السؤال ، وأنا أراجع كل بيانات الكمبيوتر ، فى آلة الزمن الجديدة ، التى اخترعتها ، والتى اكتمل صنعها ، وأصبحت جاهزة للعمل ..

ومن كل ذرة فى كيانى ، تصاعدت نشوة عجيبة ..

الآن أصبح بإمكانى إثبات ما عجز عنه كل علماء الأرض ، لما يقرب من قرن كامل من الزمان ..

أصبح بإمكانى أن أثبت أن السفر عبر الزمن حقيقة ..

تمامًا كما أكّدت معادلات (أينشتين) ..

أخيرًا توصّلت إلى العامل المفقود ، الذى أعجز كل من كان قبلى ، عن تحويل النظرية إلى حقيقة ..

واليوم .. اليوم فقط ، أصبحت آلتى مستعدة للانطلاق ..

عبر الزمن ..

كل مخلوق هنا حذّرنى من الانطلاق بنفسى ، فى رحلة آلة الزمن الأولى ، ولكننى كنت أعلم أن الدافع الرئيسى ، وراء كل هذه التحذيرات ، ليس هو الخوف على مصيرى ومستقبلى ، وإنما هى الغيرة ، التى تشتعل بها قلوبهم ، لأننى أنا من سيفوز بالغنيمة كلها ، وربما أكبر شهرة حظى بها عالم ، منذ مئات السنين ..

لقد أعدت دراسة كل معادلة فى فكرتى ، وكل شريحة فى آلتى ، وتأكّدت من أن كل شىء على ما يرام ، وأن التجربة الأولى ستتكلّل بالنجاح ..

كل النجاح ..

وهأنذا فى معملى ، داخل آلتى ، ومساعدى يقف أمام الكمبيوتر فى الخارج ، مستعدًا للقيام بآخر خطوة ، يستلزمها الانطلاق عبر الزمن ..

وكخطوة أخيرة ، رحت أراجع التاريخ ، الذى قررّت السفر إليه ..

الكل تقريبًا توقّع أن أنطلق ، إلى المستقبل ، ولكننى وجدت أن هذه الفكرة حمقاء تمامًا ..

فالانطلاق إلى المستقبل يعنى أن أختفى من هذه اللحظة ، لأعاود الظهور فى المستقبل القريب ، أو البعيد ..

ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يحدث ، ما بين اختفائى وعودتى ؟!

ربما استغلّ بعضهم غيابى ، ليسجّل اختراعى العظيم باسمه ، أو ينسب لنفسه فضل القفز ، من مرحلة النظرية إلى التطبيق .

لذا ، فقد استبعدت فكرة السفر إلى المستقبل تمامًا ..

واخترت السفر إلى الماضى .

والماضى القريب أيضًا ..

اخترت السفر إلى شهر واحد ، يسبق تاريخ التجربة ..

أعلم أن الكل سيستنكر هذا وينكره ، ويؤكّد أنه من المستحيل أن أسافر إلى زمن ، كنت متواجدًا فيه بالفعل ، باعتبار أن المادة الواحدة لا يمكن أن تتواجد مرتين فى زمن واحد ..

ولكن معادلاتى تؤكّد العكس تمامًا ..

ففى حالة سفر شخص ما إلى الماضى ، إلى زمن تواجد فيه فعليًا ، لا يتم تدمير مادته ، كما كانوا يتصوّرون فى الماضى ، وإنما يحدث ما أطلقت عليه اسم (الإحلال) ..

الشخص الموجود فى زمنه الطبيعى سيظلّ كما هو ، فى نفس عمره وشخصيته وهيئته ، وبكل ما يتناسب مع التطوّر الزمنى الطبيعى له ..

أما القادم من زمن آخر ، فسيحتلّ عقله ..

فقط عقله ..

أو بمعنى أدق ، سيتحرك الشخص الزمنى الطبيعى ، بعقلية الآتى من زمن آخر ..

هل أمكنكم استيعاب الفكرة ؟!

أعلم أنه ليس بالأمر السهل ، ولكن العلماء أمثالى يمكنهم فهمه ، واستيعابه ، والتعامل معه أيضًا ..

لأن عقولهم تقرّر ، وتنفذ أيضًا ..

المهم أننى اخترت السفر إلى شهر سابق ؛ لأن هذا يساعد اكتشافى تمامًا ..

فطوال الشهر الماضى ، رحت أسجّل ، وبمنتهى الدقة ، كل ما يحدث فى المبنى ، لكل الزملاء والرؤساء ، وبخاصة الأمور غير المتوقّعة ، أو التى يستحيل معرفتها مصادفة ..

وعندما أعود إلى ذلك الشهر السابق ، سأبدأ فى إبلاغ الكل بما سيحدث لهم مسبقًا ، على نحو يدهشهم ، ويبهرهم ، ويثير حيرتهم وقلقهم ، قبل أن أشرح لهم الأمر كله ، وأخبرهم أن آلتى قد نجحت تمامًا ، وأننى آت بالفعل من مستقبلهم ..

لن يكون هناك تأثير ، فى الوجود كله ، أقوى من هذا ..

مرة أخرى امتلأت نفسى بالنشوة ، وأنا أتخيّل ما سيحدث ، وكيف أنه لن يصبح أمامهم سوى الاستسلام لنجاحى ، والاعتراف بعبقريتى ، والخضوع لإنجازى الزمنى العظيم ..

وبكل تلك النشوة ، التى تجرى فى عروقى أشرت إلى مساعدى ، فالتقط نفسًا عميقًا ، ثم ضغط الزر الأخير ..

وانطلقت بى الآلة ..

عبر الزمن ..

كل شىء سار كما وصفته معادلاتى بالضبط ..

آلتى نجحت فى السفر عكسيًا عبر الزمن ، كما أكّد (ألبرت أينشتين) ، منذ ما يقرب من قرن من الزمان ، ونقلتنى إلى تاريخ شهر سابق بالضبط ..

ولقد حدثت حالة (الإحلال) ، التى توقّعتها أيضًا ..

جسدى ظلّ على ما هو عليه ، فى ذلك التاريخ ، فى حين احتلّ عقلى المستقبلى ذلك الجسد تمامًا ..

وأصبحت أعلم كل ما سيحدث ، خلال الشهر القادم ..

كل الأفعال ، والأحداث ..

وبكل التفاصيل ..

ولكن هناك مشكلة سخيفة ..

إننى ، وعلى الرغم من وجود عقلى المستقبلى ، أتحـرك وأتصرف وأتحدث ، تمامًا كما كنت أفعل من شهر سابق ..

قوة هائلة ، ولايمكننى التحكم فيها ، تضطرنى للسير على الخط نفسه ، كما لو كنت آلة ، لاتملك من أمرها شيئا ..

ومهما حاولت ، كنت أقول ما قلته ، وأفعل ما فعلته ، وأعمل ما عملته من قبل ..

وهذا يكاد يصيبنى بالجنون ..

وهأنذا أواصل صنع آلة الزمن ، كما لو أننى لم أصنعها من قبل ..

بل إننى أتوقف عند نفس العقبات والمشكلات ، التى سبق لى حلها ، قبل أن أبدأ رحلتى الزمنية هذه ..

والعجيب أن عقلى يعرف الأجوبة الآن ، ولكنه يبدو كما لو أنه قد انفصل عن كيانى ، أو أن كيانى مضطر للسير على نفس خطى الأيام السابقة ..

وهذا أوصلنى إلى نظرية جديدة ..

ربما كان السفر عبر الزمن ممكنًا ، ولكن تغيير ما حدث فى الماضى مستحيل !

مستحيل .. مستحيل .. مستحيل !

كل شىء حدث سيحدث ، مهما حاولت أو فعلت ..

كل شىء ..

« والآن ، ماذا سنفعل ؟! »

نطق مساعدى السؤال ، وأنا أراجع كل بيانات الكمبيوتر ، فى آلة الزمن الجديدة ، التى اخترعتها ، والتى اكتمل صنعها ، وأصبحت جاهزة للعمل ..

يا إلهى ! كيف لم أنتبه إلى هذه الكارثة فى حينها ..

إننى سأنطلق مرة أخرى ، فى تلك الرحلة عبر الزمن ..

سأعود إلى شهر سابق ، لأفعل نفس ما فعلته ، وأقول نفس ماقلته ، ثم ينتهى بى الأمر إلى ما انتهى إليه من قبل ..

رحلة آلة الزمن إلى الماضى ..

وتكرار الأمر ..

تكراره إلى الأبد ..

وعلى الرغم منى ، ومن الرعب الهائل ، الذى ملأ كل ذرة من كيانى ، بعد انتباهى إلى هذا المصير الرهيب البشع ، وكخطوة أخيرة ، رحت أراجع التاريخ ، الذى قرَّرت السفر إليه ..

وأشرت إلى مساعدى ، فالتقط نفسًا عميقًا ، ثم ضغط الزر الأخير ..

وانطلقت بى الآلة مرة أخرى ..

عبر الزمن ..

وبكل انفعالاتى ، ودون أن تتجاوز الكلمات شفتىَّ ، صرخت :

ـ لا .. ليس كل مرة !

ولكن هذا لم يكن له أى تأثير ..

أو أى معنى ..

فالرحلة ستتواصل ، والدائرة ستكتمل مرة تلو مرة .. إلى الأبد .

★ ★ ★

مهمة رسمية

ملخص ما سبق نشره :

فى سابقة تعدّ الأولى من نوعها ، لجأ اللواء (حلمى) إلى (نديم فوزى) ؛ ليعاونه فى قضية غسيل أموال قذرة ، تورّط فيها رجل الأعمال الشهير (رشاد السلباوى) ، صاحب النفوذ والاتصالات ..

وما إن بدأ (نديم) مهمته ، باعتباره (العقرب) ، حتى انفتحت أبواب الجحيم على مصراعيها ..

(إدوارد) محامى (رشاد) ، والزعيم الفعلى لمنظمة غسيل الأموال ، أطلق كل رجاله خلف (نديم) ؛ ليرصد حركاته وسكناته ، لعلمه بأنه هو نفسه (العقرب) ، مكافح الجريمة السرى رقم واحد فى (مصر) ..

ولكن (العقرب) انتصر مرة .. وثانية ، و ....

وكان من المحتم أن يلجأ المحامى (إدوارد) إلى وسيلة أكثر حسمًا ..

وأكثر عنفًا ..

إلى المبيد ..

قاتل إيطالى محترف ، تم استيراده خصيصًا ، لاغتيال (نديم) ، وإزاحته من الوجود تمامًا ..

ولقد أدّى القاتل المحترف (ماريو) مهمته ..

ولكن ليس بنجاح ..

لقد أصاب (غادة) ، زميلة (نديم) ، دون أن ينجح فى القضاء على هذا الأخير ..

وتفجّر غضب (نديم) إلى أقصى حد ..

وببطاقة هويته السابقة كرجل شرطة ، دخل (نديم) إلى مبنى (رشاد السلباوى) ، واقتحم وكر الذئاب ، على نحو جعل المحامى (إدوارد) يطلق صفارة الإنذار الكبرى فى المبنى كله ..

وبقيادة القاتل الإيطالى المحترف (ماريو) ، تحوّل رجال الأمن ، فى المبنى كله ، إلى فرقة قنص ، تنشد فريسة واحدة ..

(العقرب) ..

وبأى ثمن .

★ ★ ★

٩ ـ حمـاية ..

انعقد حاجبا اللواء (حلمى) فى شدة ، وهو يستمع إلى العقيد (مجدى) فى اهتمـام ، قبل أن يحكّ ذقنـه بسبّابته ، مغمغمًا فى شىء من التوتر :

ـ شخص ملتح ، يرتدى جلبابًا أبيض ؟! مـا الذى يحـاولون الإيحاء به بالضبط ؟!

أجابه (مجدى) فى سرعة :

ـ إن محـاولـة اغتيـال (نديـم) ترتـكز علـى سـبب عقائدى محض .

تطلّع إليه اللواء (حلمى) مباشرة ، وهو يقول :

ـ وهل يبدو لك هذا منطقيًا ؟!

هزّ (مجدى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مطلقًا .

ثم شدّ قامته ، فى وقفة عسكرية قوية ، وهو يضيف :

ـ صحيح أننى أختلف مع (نديم) ، منذ كنـا زميلين فى الشرطة ، ولكننى أعلم جيّدًا أنه ما من سبب منطقى ، لمحاولة اغتياله لسبب عقائدى .

نهض اللواء (حلمى) من خلف مكتبه ، وهو يقول فى حزم :

ـ أضف إلى هذا أن البندقية ، التى تركهـا القـاتل خلفـه ، من طراز غير مألوف هنا ، واستخدامها أيضًا ليس بـالأمر المألوف ، بالنسبة لتلك الجماعات أو غيرها .

وتوقّف ببصر شارد ، ليضيف :

ـ إننى اشتمّ من هذا رائحة أجنبية .

ردّد (مجدى) فى حذر :

ـ أجنبية ؟!

لم يجب اللواء (حلمى) تساؤله الحذر هذا ، وهو يواصل الشرود ببصره وأفكاره بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلتفت إليه ، ويسأله فجأة :

ـ أين (نديم) الآن ؟!

لوّح (مجدى) بيده ، مجيبًا فى شىء من العصبية :

ـ لقد اختفى ، فى أثناء معاينة رجالنا لمسرح الجريمـة ، على الرغم من أنه مصاب فى ذراعه .

سأله اللواء (حلمى) فى توتر :

ـ وماذا عن (غادة) ؟!

أجابه فى أسف :

ـ إصابتها خطيرة كما يقولون ، وهى الآن فى حجرة العمليات بالفعل ، فالرصاصة اخترقت ظهرها ، ونفذت من صدرها ، وهناك احتمال أن ...

قاطعه اللواء (حلمى) ، متسائلاً فى اهتمام بالغ :

ـ أين يمكن أن نجد (نديم) فى رأيك ؟!

تضاعف حذر (مجدى) ، وهو يجيب :

ـ وكيف لى أن أعرف ؟!

أشار اللواء (حلمى) بيده ، قائلاً :

ـ إننا رجال شرطة ، والمفترض أن نكتسب القدرة على استنتاج ما لانراه بأعيننا .

غمغم (مجدى) :

ـ بالتأكيد .

تابع اللواء (حلمى) فى اهتمام :

ـ على الرغم من كل ماحاولوا الإيحاء لنا به ، فكلانا يعلم أن (نديم) يستهدف (رشاد السلباوى) هذه المرة .

شعر (مجدى) بانفعال جارف ، يسرى فى عروقه ، وهو يقول فى تحفز متوتر :

ـ بافتراض أنه (العقرب) ..

تجاهل اللواء (حلمى) العبارة تمامًا ، وهو يتابع :

ـ وتحرياتنا تؤكد أن (رشاد) على علاقة ببعض المنظمات غير الشرعية ، فى الولايات المتحدة الأمريكية و(إيطاليا) و(نديم) يعلم هذه الحقيقة أيضًا .

تساءل (مجدى) بنفس الانفعال :

ـ وكيف علمها ؟!

مرة أخرى تجاهله اللواء (حلمى) ، وهو يقول :

ـ الأسلوب الذى تمت به محاولة اغتيال (نديم) ، هو

أسلوب قاتل محترف ، وهذا يقودنا إلى احتمال تورُّط (رشـاد) ، أو محاميه الداهية (إدوارد) ، فى تلك المحاولة .. وسـقوط (جابر) ، رجل الأمن بمبنى (السلباوى) ، يمنحه الدليل القـاطع على هذا .

غمغم (مجدى) ، فى انفعال شديد :

ـ سيادة اللواء ، يلوح لى أن ...

قاطعه اللـواء (حلمى) ، وهـو يلتفت إليـه مرة أخرى ، مكملاً :

ـ ضع نفسك إذن فى مكان (نديم) ، وأنـت تعلم كل هذا ، ثم تصاب زميلتك إصابة قاتلة أمام عينيك .. ما الذى ستسـعى إليه عندئذ ؟!

بذل (مجدى) جهدًا خطيرًا ؛ للسيطرة علـى أعصابـه ، وهو يجيب :

ـ الانتقام .

هتف اللواء (حلمى) ، فى توتر بالغ :

ـ بالضبط .

ثم أمسك ذراعى (مجدى) فى شدة ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! لابد أن نسرع يا (مجدى) .. لابد أن تتحرك بأقصى سرعة ؛ لو أردنا ألا نفقده .

هتف (مجدى) ، فى عصبية شديدة :

ـ نفقد من ؟!

أجابه اللواء (حلمى) ، وهو يندفع نحو باب حجرة مكتبه :

ـ سلاحنا السرى يا رجل .. (نديم) .. (نديم فوزى) .

ومرة أخرى ، تفجَّر انفعال جارف فى أعماق (مجدى) ..

فكل شىء من حوله كان يحمل ألف علامة استفهام ..

بل آلاف ..

* * *

تحت قيادة القاتل الإيطـالى المحترف (مـاريو) ، انتشر رجال الأمن ، فى المبنى الإدارى الضخم ، لمجموعة شركات (رشاد السلباوى) ، وراحوا يفتشون كل حجرة ..

وكل شبر ..

بل كل سنتيمتر ..

وبكل صرامته وتوتره الإيطالى ، راح (ماريو) يهتف :

ـ أوقفوا المصاعد كلها ، وافصلوا التيار عنها تمامًا .. كل طابق يتم تفتيشه يُغلق تمامًا ، وتوضع عليه حراسة مشدَّدة .. وليذهب فريق من أفضل رجالكم ، لحماية الزعيم مباشرة .

سأله أحد رجال الأمن فى حذر :

ـ هل تقصد (رشاد) بك ، بلقب الزعيم هذا ؟!

كان (ماريو) يقصد الإشارة إلى (إدوارد) فـى الواقـع ، ولكن تساؤل رجل الأمن جعله يجيب فى حدة :

ـ بالتأكيد أيها الغبى .. ومن غيره ؟!

كان الرجال غير المدربين يشعرون بتوتر بلاحدود ، لأنهـم يواجهون هذا الموقف لأول مرة ، لذا فقد تعلَّقوا بقيادة (مـاريو) المحترف ، وراحوا ينفذون أوامره بمنتهى الطاعة والدقة ..

وفى الطابق الثالث من المبنى ، كان رجلان من رجال الأمن يتحركان فى توتر وسرعـة ؛ لتفتيش المـكان كله ، وأحدهم يسأل زميله :

ـ تُرى ماذا يحدث هنا ؟! الأمر يبدو كما لو أننا فى حرب !

غمغم زميله :

ـ يبدو أن الشخص ، الذى تسلَّل إلى المبنى ، يثير قلقهم بشدة .

تساءل الأوَّل :

ـ ومن ذلك الإيطالى ، الذى يدير الأمور هنا ؟!

تنهَّد زميله ، وقال ، وهو يدفع باب حجرة أدوات النظافة :

ـ لا أحد يعلم أى شىء عنـه ، سوى أنه يحظى باهتمام السيد (إدوارد) شخصيًا ، وهذا يعنى أنه ..

قاطعه صوت من داخل حجرة أدوات النظافة ، يقول فى صرامة :

ـ وغد مثله .

جفل الرجلان مع المفاجأة ، وسحب أحدهما مسدسه فى سرعة ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! إنه ..

قبل أن يتمّ عبارته ، انقضّ عليه (نديم) كالصاعقة ، وركل يده الممسكة بالمسدس ، فأطاح به فى قـوة ، قبل أن تثب قبضته ، لتضرب فكه بلكمة كالقنبلة ..

وفى نفس اللحظة ، التى سقط فيهـا الرجل فاقد الوعـى ، كان زميله ينقضّ على (نديم) ، صائحًا :

ـ أنت هو إذن .

قالها ، وهو يلكم (نديم) فى صدره لكمـة قويـة ، شـعر معها هذا الأخير بألم عنيف ، وهو يتراجع ليرتطم بالجدار ، إلا أنه لم يلبث أن ارتدّ فى سرعة ، وهو يهتف :

ـ نعم .. أنا هو .

ومع قوله ، غاصت قبضته اليمنى فى معدة رجل الأمن ، قبل أن يسحب مسدسه بلحظة واحدة ، وما إن انثنى الرجل ، من فرط الألم ، حتى ارتفعت نفس القبضـة ، لتهوى علـى فكـه كصاعقـة ، أعادتـه إلـى وضعـه ، وزادتـه انحنـاءً إلـى الخلف ، ليسقط على ظهره فى عنف ، وهو يصرخ :

ـ النجدة يا ...

قبل أن تكتمـل صرختـه ، ركله (نديم) فى أنفـه بعنـف ، فارتطم رأسه بالأرض ، وغاب عن الوعى على الفور ..

وفـى سـرعة ، ودون أن يضيـع لحظـة واحـدة ، وعلـى الرغم من ذراعه المصابة ، جذب (نديم) الرجلين ، داخل حجرة أدوات النظافة ، وهو يغمغم :

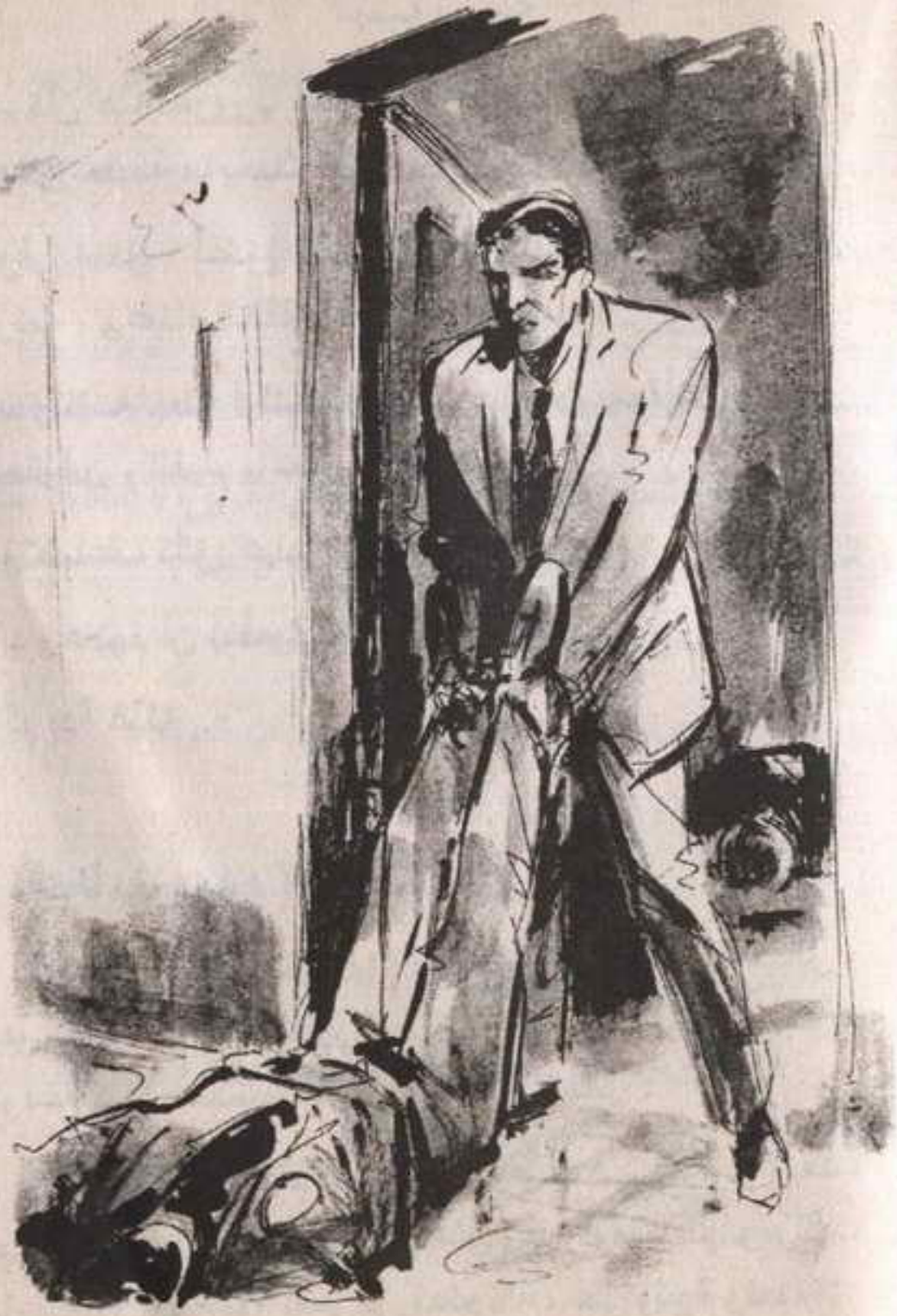

ـ كان هذا ضروريًا للأسف ، على الرغم من ثقتى بأنكما تجهلان حقيقة ما يحدث هنا ..

وفى إحكام ، أغلق الباب خلفه وخلفهما ، مستطردًا بكل صرامة ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب :

ـ ولكنـه خطأ أولئـك الأوغاد ، الذين يستأجرون غير المحترفين ، للقيام بأعمال المحترفين .

وتضاعف تألُّق عينيه ، وهو يضيف :

ـ وعليهم أن يدفعوا ثمن هذا .

ثم بدأ عمله ..

★ ★ ★

« خطأ يا (إدوارد) .. خطأ .. »

هتف (رشاد السلباوى) بالكلمة ، فى غضب هادر ، وهو يقف أمام نافذة حجرة مكتبه الكبيرة ، قبل أن يلوِّح بذراعه كلها ، مستطردًا بكل الحدة والانفعال :

ـ من الواضح أنك لم تستوعب وجودك فى (مصر) بعد ، ومازلت تتعامل وكأنك فى (شيكاغو) أو (لوس أنجلوس) .. هل تتصوَّر أن الأمور تسير فى العالم كله ، على وتيرة واحدة ؟!

عقد (إدوارد) كفيه خلف ظهره فى صرامة ، وهو يجيب :

ـ هذا صحيح .

هتف به (رشاد) :

ـ ما الصحيح ؟!

أجابه فى صرامة أكثر :

ـ الأمور تسير فى العالم كله ، على وتيرة واحدة ، مع شىء يسير من التعديل ، بين كل مكان وآخر .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى شراسة :

ـ فالقوة والنفوذ وحدهما ، يحكمان كل شىء .

صاح به (رشاد) فى غضب :

ـ وماذا عن القانون ؟!

اعتدل (إدوارد) ، مجيبًا :

ـ القانون أيضًا يخضع للقوة والنفوذ ، ويتحوَّر مع وجودهما ، على نحو يرضى مالكهما .

صاح (رشاد) :

ـ ليس فى (مصر) .

أجابه (إدوارد) ، فى صرامة مخيفة :

ـ بل فى كل مكان فى العالم .

لوَّح (رشاد) بذراعه مرة أخرى ، قائلاً فى حدة :

ـ وكيف تنقذك القـوة ، ويحميك النفوذ ، من محـاولة اغتيال ، جلبت لنا ، أوّل ما جلبت ، محاولة انتقام مباشـرة ، من الشخص المفترض تصفيته ؟!

أجابه (إدوارد) فى حزم :

ـ القوة والنفوذ يبعدان الشبهات عنك من الأساس أيها الأحمق .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت سكرتيرة مكتب (رشاد) ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهى تقول :

ـ سيد (إدوارد) .. أحد رجال أمن المبنى هنـا ، ويصرّ على مقابلتك فورًا .

انعقد حاجبا (إدوارد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ مقابلتى أنا .. ولماذا ؟!

أجابته السكرتيرة ، وصوتها يحمل رنة توتر :

ـ يقول إن هذا يتعلَّق بالمتسلِّل ، و ....

بترت عبارتها ، لتصرخ فجأة :

ـ أنت .. ماذا تفعل .

لـم يكد جهـاز الاتصـال الداخلـى ينقل صرختهـا ، حتـى انتفض جسد (رشاد) فى عنف ، وتراجع بحركة عشوائية حادة ، هاتفًا :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

أما (إدوارد) ، فقد قفزت يده بسرعة إلى جيب سترته ، حيث يحتفظ بمسدسه الصغير ، و ....

وفجأة ، اقتحم (نديم) الحجرة ، وقال فى صرامة ، وهـو يصوِّب فوهة مسدس كبير ، إلى رأس (إدوارد) مباشرة :

ـ إياك حتى أن تحاول ..

تجمدت يد (إدوارد) ، قبل أن تبلغ مسدسه ، وامتقع وجـه (رشاد) بشدة ، وراح جسده يرتجف فى عنف ، فـى حين لحقت السكرتيرة بـ (نديم) ، صائحة :

ـ ليس من اللائق أن ...

اختنقت صيحتها فى حلقها ، عندما وقع بصرها على المسدس المصوَّب إلى رأس (إدوارد) ، وأطلقت شهقة مذعورة ، فهتف بها هذا الأخير فى حدة :

ـ اصمتى ..

نقلت بصرها فى ارتياع ، بين (نديم) و(إدوارد) ، فهتف (رشاد) فى رعب :

ـ سنبلغ الشرطة .. (نسرين) .. أبلغى الشرطة فورًا ، قبل أن ....

صاح به (إدوارد) :

ـ اصمت يا رجل ، وتمالك أعصابك .

ارتجف صوت السكرتيرة ، وهى تقول :

ـ هل أبلغ الشرطة ؟!

أجابها (إدوارد) فى صرامة :

ـ كلاَّ .. انصرفى إلى مكتبك ، وسنستدعيك إذا ما احتجنا إليك .

عادت تنقل بصرها ، بين وجه (رشاد) الشاحب ، وملامح (إدوارد) العصبية الصارمة ، والمسدس فى يد (نديم) ،

قبل أن تغادر الحجرة ، وتغلق بابها خلفها فى عصبية ، ولم تكد تفعل ، حتى قال (نديم) :

ـ من الواضح أن محاميك أكثر حكمة منك أيها الحقير .

اتسعت عينا (رشاد) ، وهو يقول :

ـ حقير ... من تقصد بكلمة حقير هذه ؟!

استوقفه (إدوارد) بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

ـ لماذا أنت هنا يا سيد (نديم) ؟!

أجابه (نديم) فى صرامة :

ـ السؤال الأكثر عملية هو : لماذا أثار وجودى توترك إلى هذا الحد أيها الوغد ؟!

عقد (إدوارد) ساعديه أمام صدره ، مجيبًا :

ـ لست أتذكَّر أن أحدًا قد دعاك إلى هنا يا سيِّد (نديم) .

أجابه (نديم) فى سرعة :

ـ الواقع أننى قد تلقيت دعوة الحضور فى مكتبى ، ولكن من أرسلته بها أخطأ العنوان ، فمنحها لزميلتى (غادة) ، التى لو أصابها مكروه ، فلن تكفينى حياتكما معًا تعويضًا عنها .

ازداد امتقاع وجه (رشاد)، وارتبك على نحو ملحوظ، حتى إن ساقيه قد عجزتا عن حمله، فاستند إلى أقرب مقعد إليه، وهو يردّد:

ـ يا إلهى! يا إلهى!

جلس على المقعد، وركبتاه تصطكان ببعضهما، فى حين قال (إدوارد)، فى شىء من البرود:

ـ لست أفهم بالضبط ما تعنيه، يا سيّد (نديم).

جنب (نديم) إبرة المسدس، الذى حصل عليه من أحد رجلى الأمن، اللذين أفقدهما وعيهما، وهو يقول فى صرامة:

ـ أتظننى مضطرًا لمنحك دعوة مماثلة، حتى أنعش ذاكرتك؟!

ابتسم (إدوارد) فى شىء من السخرية، وهو يقول:

ـ أنا واثق من أنك لن تفعل.. هذا لايتفق مع طبيعة شخصيتك.

قال (نديم) فى غضب:

ـ حتى بعد مافعلتموه بزميلتى أيها الوغد؟!

التقى حاجبا (إدوارد)، وهو يقول فى توتر:

ـ إنك لم تقتل أحدًا، طوال تاريخك كله.

سأله (نديم)، وهو يصوّب المسدس، إلى رأسه مباشرة، وسبّابته تتلاعب على الزناد:

ـ أى تاريخ تقصد؟! تاريخ (نديم فوزى)، ضابط الشرطة السابق، أم...

أكمل (إدوارد) فى سرعة:

ـ أم تاريخ (العقرب) الحالى؟!

قال (نديم) فى صرامة :

ـ لم يعد هناك فارق .

كاد (رشاد) يفقد وعيه ، من شدة خوفه ، وهو يتمتم فى انهيار :

ـ كان ينبغى أن نبلغ الشرطة .. كان ينبغى أن نفعل :

أدار (نديم) عينيه إليه ، قائلاً :

ـ إننى أتفق معك فى هذا ... أى شخص شريف ، فى نفس موقفك ، كان سيتصل بالشرطة مباشرة ، ولكن يبدو أن محاميك لا يرغب فى أن تدس الشرطة أنفها هنا .

عاد (إدوارد) يسأله فى عصبية :

ـ لماذا أنت هنا يا سيِّد (نديم) ؟!

أعاد (نديم) بصره إليه ، قائلاً :

ـ تستطيع أن تقول : إننى ألعب هنا دور «البوسطجى» .

ردَّد (إدوارد) ، فى حذر متسائل :

ـ «البوسطجى» ؟!

أجابه (نديم) :

ـ نعم .. لتوصيل رسالة مباشرة .

اتسعت عينا (رشاد) ، فى رعب هائل ، وهو يحدِّق فى فوهة المسدس ، الذى يمسك به (نديم) ، وقد خُيِّل إليه أنه قد فهم ما يعنيه ، ولكن هذا الأخير تابع بنفس الصرامة :

ـ رسالة تقول : إنه إذا ما أردت أن أصل إليكما فسأفعل ، مهما أحطتما نفسيكما بكل حماية ممكنة .

غمغم (إدوارد) ، فى حذر أكثر :

ـ فقط .

قال (نديم) فى صرامة :

ـ ضغطة واحدة على الزناد ، وأضيف تأكيدًا جديدًا ، لا يقبل الجدل ، أو ...

بتر عبارته بغتة ، عندما لاحظ اعتدال (رشاد) على مقعده ، وذلك التألق فى عينى (إدوارد) ..

وبسرعة ، وبمزيج من براعة الاستنباط وغريزة المقاتل ، استدار (نديم) خلفه فى سرعة ، ورفع فوهة مسدسه ، ولمح

لحظة وجه (مــاريو) ، الذى عبر بابًا خفيًا فى الجدار ، و .....

وقبل أن تكتمل استدارته ، هوت علــى رأســه ضربــة عنيفة ..

وأظلمت الدنيا دفعة واحدة ..

تمامًا .

★ ★ ★

١٠ ـ قبضــة العــدو ..

خفق قلب عم (أحمد) فى عنف ، وامتقع وجهه بشــدة ، وهو يقف أمام حجرة عمليــات الطــوارئ بالمستشــفى ، وراحت عينـاه الزائغتان تتابعان فى ارتيـاعٍ ملهـوف ، كل من يدخل إليها أو يخرج منها ، قبـل أن يتعلق بـذراع أحد الممرضين ، ويسأله فى توتر بالغ :

ـ كيف حالها ؟!

أزاح الممرض يده ، وهو يجيب فى آلية :

ـ الأطباء يفعلون كل ما باستطاعتهم .

لحق به عم (أحمد) مرة أخرى ، متسائلاً :

ـ هل .. هل اخترقت الرصاصة قلبها ؟!

هزَّ الممرض رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. هذا أمر يفهمه الأطباء وحدهم .

حاول الرجل أن ينصرف لشأنه ، ولكن عم (أحمد) عاد يتعلق بذراعه مرة أخرى ، متسائلاً :

ـ قل لى باللّه عليك : هل ستنجو ؟!

صاح به الممرض فى حدة :

ـ ومن أدراني ؟!

تراجع عم (أحمد) ، وانكمش على نفسه فى ضعف ، مغمغمًا :

ـ معذرة يا ولدى .. كنت فقط أسأل .

شعر الممرض بتأنيب الضمير ، وبالشفقة على الشيخ ، فربَّت على ظهره ، مغمغمًا :

ـ سامحنى يا والدى .. أعباؤنا كثيرة ، وأعصابنا دائمًا فى قمة التوتر .

أومأ عم (أحمد) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ أعلم هذا يا بنى .. أعلمه جيِّدًا ، ولكنك لاتدرك كم أشعر بالخوف عليها .

انحدرت الدموع من عينيه ، مع الجزء الأخير من عبارته ، وارتجفت شفتاه فى مرارة ، فعاد الممرض يربِّت على ظهره ، قائلاً :

ـ لابأس ياوالدى .. لابأس .. سأعود إلى حجرة العمليات ، وسأبلغك خيرًا بإذن اللّه .

تبعه عم (أحمد) ببصره ، وهو يعود إلى حجرة العمليات ، ثم غمغم :

ـ ساعدها يا إلهى ! ساعدها .

مضت دقائق ، بدت له أشبه بدهر كامل ، وهو يقف فى انتظار عودة ذلك الممرِّض وتعلَّقت عيناه بباب حجرة عمليات الطوارئ ، و ....

وفجأة ، انفتح الباب ..

وخفق قلب عم (أحمد) فى قوة ، واشرأبَّ ببصره ، متوقعًا رؤية ذلك الممرِّض ..

ولكنه لم يكن القادم ..

كانت ممرضة شابة ، اندفعت خارج حجرة العمليات ، وانطلقت تعدو فى الممرّ فصاح بها عم (أحمد) :

ـ ماذا حدث ؟!

صاحت به فى توتر بالغ :

ـ لاوقت لهذا أيها الشيخ .. الموقف خطير .. خطير للغاية !

وهوى قلب عم (أحمد) بين قدميه ..

بمنتهى العنف ..

★ ★ ★

انتفخت أوداج (ماريو) ، وهو يصوّب مسدسه إلى رأس (نديم) ، الذى سقط فاقد الوعى ، وقال فى سخرية وحشية :

ـ إنه لم يكن ذكيًا كما تصوّر .

ثم جذب إبرة مسدسه ، مستطردًا :

ـ هل أنسف رأسه ؟!

قبل أن تنفرج شفتا (إدوارد) بحرف واحد ، هبَّ (رشاد) من مقعده صائحًا بكل عصبية الدنيا :

ـ لا .. ليس هنا .

تطلَّع إليه (ماريو) فى سخرية ، ولكن (إدوارد) قال فى صرامة :

ـ إنه على حق .

هتف (ماريو) فى عصبية :

ـ أى حق ؟! إنه متسلِّل .. دخل المكان دون وجه حق ، والمسدس الذى كان يمسك به ، يحمل بصماته حتما ، ويمكننا أن ندّعى أنه حاول قتل سنيور (رشاد) ، أو ....

قاطعه (رشاد) فى حدة :

ـ لا .. لاتقحم اسمى فى هذا الأمر .

قال (ماريو) فى حدة :

ـ لقد تم إقحامه بالفعل ، فالمبنى كله يحمل اسمك ، والصحف سوف ..

قاطعه (إدوارد) بكل صرامة :

ـ الصحف لن تعلم بما حدث هنا .

رفع (ماريو) عينيه إليه بحركة حادة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ كيف تفكرون هنا بالضبط ؟!

أجابه (إدوارد) بزمجرة شرسة :

ـ بالأسلوب الصحيح ، الذى لايفْهمه الحمقى أمثالك .

انعقد حاجبا (ماريو) فى عصبيـة، فتـابع (إدوارد)، بنفس الصرامة الشرسة العنيفة :

ـ أنت لاتعـرف الصحافة هنـا، وفى أى مكان آخـر .. (السلباوى) يقيم مبنى ضخمًا، فـى قلـب المدينـة، وهذا المحامى أقام دعوى ضده بالفعل، لمنعه من إتمام المشروع، بحجـة أنـه نـوع من التلوّث البصرى البيئـى، والصحـف ستفسّر مقتلـه هنـا، بأنـه نـوع من بلطجـة أثريـاء رجـال الأعمـال، وسيتحوّل اسم (السلباوى) إلـى مضغـة فـى الأفـواه، ربمـا لعـام كـامل، والعمـل الـذى تقـوم بـه هنـا .. أقصد العمل الحقيقى، لايتفق مـع لفت انتبـاه الصحافـة، حتى ولو وجدنا ألف مبرّر قانونى لمقتله هنا .

لوّح (ماريو) بذراعيه، هاتفًا :

ـ هل سنتركه يرحل إذن ؟!

التقى حاجبا (إدوارد)، فى صرامة وحشية، وهو يقول :

ـ كلاً بالطبع .. إننا سنتخلّص منه .

ثم شدّ قامته، مضيفًا :

ـ بعيدًا عن هنا .

تألقت عينا (ماريو)، وهو يقول :

ـ آه .. فهمت .

تابع (إدوارد)، فى صرامـة امتقع لهـا وجـه (رشـاد) أكثر :

ـ قل لـ (إبراهيم) أن يعـاونك، وقيداه جيّدًا، ثم ضعاه فى صندوق السيارة الكبيرة، واصعدا به إلى جبل المقطّم، و ...

كشّر (ماريو) عن أسنانه القذرة، وهو يقول :

ـ لقد فهمت .

ثم انطلقت من حلقه ضحكة وحشية مجلجلة، وهو يلتقط هاتفه المحمول، ويضغط أزراره، قائلاً :

ـ (إبراهيم) .. تعال إلى حجرة سنيور (رشاد) فـورًا .. ادخل مـن البـاب الخلفـى، المتصل بحجرة الاجتماعـات، وليس من الباب الرئيسى .

وبضغطة زرّ أخرى، أنهى الاتصال، وأعاد الهـاتف إلـى جيبه، فقال (رشاد) فى عصبية :

ـ هذا لايروق لى .

أجابه (إدوارد) فى صرامة :

ـ هذا لايهم .

قهقهه (ماريو) ضاحكًا مرة أخرى ، ثم مال يضرب مؤخرة عنق (نديم) بكعب مسدسه ، فهتف (رشاد) فى حنق :

ـ ولماذا ؟! إنه فاقد الوعى بالفعل !!

تألقت ضحكة وحشية ، فى عينى (ماريو) ، وهو يجيب :

ـ لا ضير من تأمين أكثر .

هزَّ (رشادٍ) رأسه فى عنف ، وضرب سطح مكتبه بقبضته ، هاتفًا فى عصبية تمتزج بالمرارة :

ـ لم أعد أحتمل هذا .. لم أعد أحتمله .

أجابه (إدوارد) فى صرامة ، وهو يتابع (ماريو) ، الذى انهمك فى تكميم (نديم) وتقييد معصميه خلف ظهره :

ـ لابد أن تروِّض نفسك على احتماله إذن ، فعملنا يحتاج إلى الأقوياء ، وليس إلى الضعفاء الخائفين أمثالك .

صاح به (رشاد) فى حدة :

ـ هكذا ؟! لماذا لم يسندوا العملية كلها إليك إذن أيها المغرور ؟!

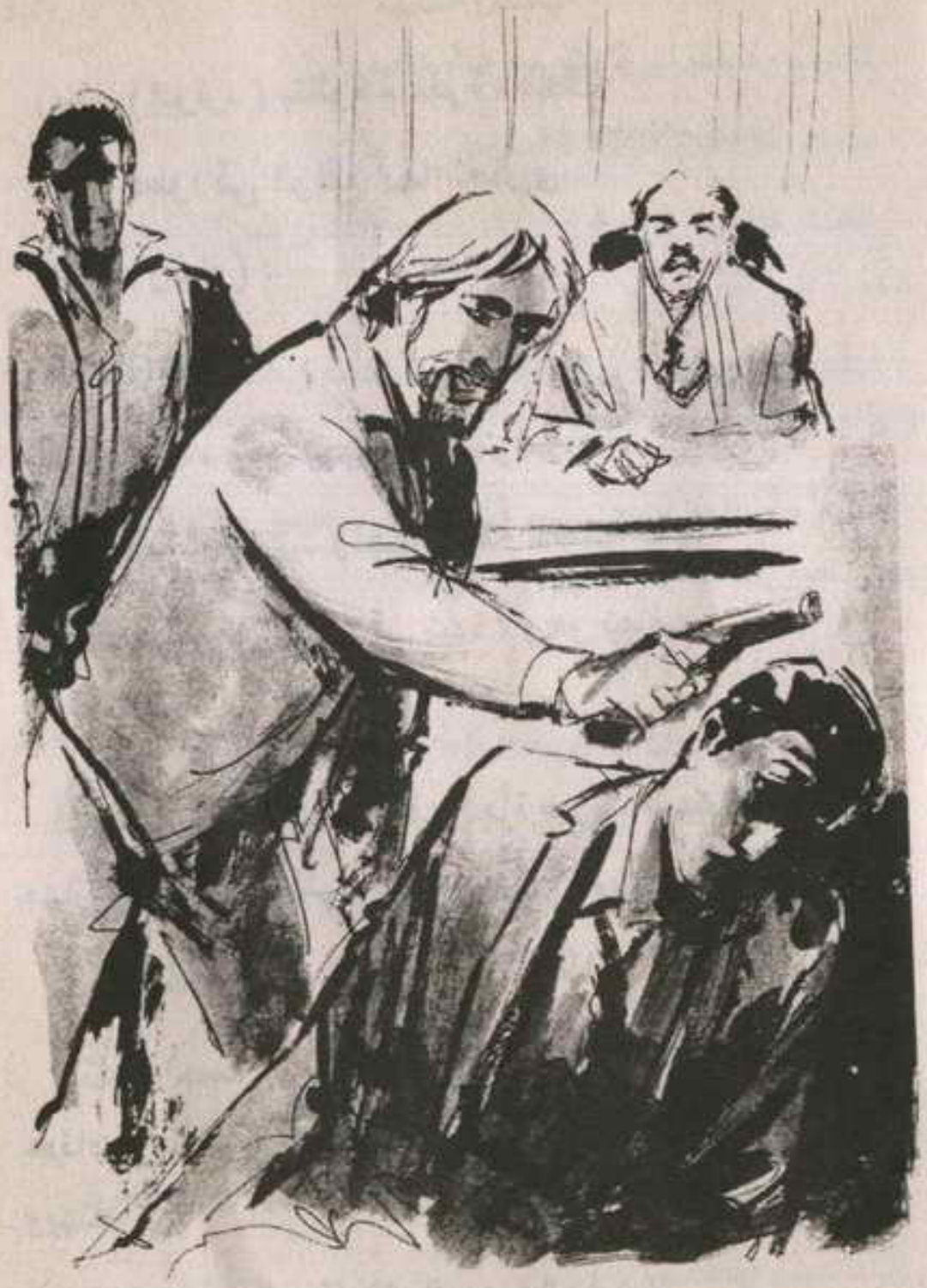

رمقه (إدوارد) بنظرة ساخرة ، قائلاً :

ـ لقد فعلوا فى الواقع أيها العبقرى .

هتف (رشاد) :

ـ وماذا عنى ؟!

أشار بيده ، وهو يجيبه فى صرامة :

ـ واجهة .. مجرّد واجهة أنيقة للعملية كلها .

احتقن وجه (رشاد) فى شدة ، وهو يهتف :

ـ أيها الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع فجأة صوت السكرتيرة ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهى تقول ، فى عصبية شديدة :

ـ (رشاد) بك .. رجال الشرطة هنا .

انتفض جسد (رشاد) على مقعده فى عنف ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدّق فى (نديم) الفاقد الوعى ، ويهتف :

ـ الشرطة ؟ ألم يقل لك السيد (إدوارد) ...

قاطعته السكرتيرة فى سرعة عصبية :

ـ لقد أتوا من تلقاء أنفسهم .

انعقد حاجبا (إدوارد) بشدة ، وأشار إلى (ماريو) ، هامسًا فى صرامة :

ـ احمله إلى حجرة الاجتماعات ، وتعاون مع (إبراهيم) ، لإخراجه من الباب الخلفى .. أسرع .

نفذ (ماريو) الأمر على الفور ، فى حين راح (رشاد) يدور حول نفسه فى انهيار ، مردّدًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

صاح به (إدوارد) فى صرامة غاضبة :

ـ تمالك نفسك يا رجل .

وانتظر ، حتى أغلق (ماريو) باب حجرة العمليات خلفه ، ثم انحنى يضغط زر جهاز الاتصال الداخلى ، قائلاً :

ـ (رشاد) بك مريض يا (نسرين) ، ولا يمكنه فى الواقع مقابلة أحد ، ولكننا لا نستطيع منع رجال الشرطة .

وأدار بصره بنظرة صارمة إلى (رشاد) ، وهو يستطرد :

ـ دعيهم يتفضلون .

ثم اعتدل ، ورفع يده عن زر جهاز الاتصال الداخلى ، قائلاً لـ (رشاد) فى صرامة :

ـ تمالك نفسك أيها الجبان .

بذل (رشاد) جهدًا مستميتًا ؛ للسيطرة على أعصابه ، وهو يجلس خلف مكتبه ، إلا أن جسده راح يرتجف فى عنف ، وهو يحدِّق برعب فى باب حجرة مكتبه ، الذى انفتح فى هدوء ، ودلف عبره اللواء (حلمى) ، وخلفه العقيد (مجدى) ، فاستقبلهما (إدوارد) بابتسامة هادئة ، وصوت أكثر هدوءًا ، وهو يصافحهما ، قائلاً :

ـ مرحبًا أيها السيدان .. تُرى ما الحدث السعيد ، الذى جعلنا نتشرَّف بزيارتكما ؟!

تطلَّع رجلا الشرطة إلى وجه (رشاد) الشاحب الممتقع ، قبل أن يقول اللواء (حلمى) :

ـ رجال الأمن لديكم يقولون : إن متسللاً نجح فى دخول المبنى ببطاقة شرطة غير صحيحة .

تضاعف شحوب وجه (رشاد) ، وراحت شفتاه ترتجفان

على نحو عجيب ، وبدا صوت اصطكاك أسنانه مسموعًا ، و(إدوارد) يبتسم ، قائلاً :

ـ ولماذا يفعل أى شخص هذا ؟! إنه مبنى تجارى ، وأى شخص يمكنه الدخول ، لو أن لديه ما يبرِّر هذا .

سأله (مجدى) فى صرامة :

ـ هل تنكر ما قاله رجال أمنك ؟!

هزَّ (إدوارد) رأسه نفيًا ، وأجاب بنفس الابتسامة :

ـ كلاَّ ، ولكن من الواضح أنهم قد أساءوا الفهم .. لقد كان أمرًا بسيطًا ، ولكنهم حولوه إلى حرب مضحكة .

سأله (مجدى) مرة أخرى :

ـ وأين ذلك المتسلِّل ؟!

أجابه (إدوارد) بسرعة :

ـ ومن أدراني ؟!

انكمش (رشاد) فى مقعده ، وهو يحدِّق فى باب حجرة الاجتماعات فى رعب ، و(إدوارد) يستدرك :

ـ لقد أدركت مدى سخافة الموقف كله ، فأمرت بإنهاء كل هذا فورًا .

تطلَّع اللواء (حلمى) إلى (رشاد) مباشرة، وهو يقول :

ـ عجبًا ! فعلى الرغم من هذا، كدنا نطلق النار على رجال أمنكم ؛ حتى يمكننا الوصول إلى هنا .

هزَّ (إدوارد) كتفيه، مجيبًا :

ـ من العسير العثور على خبراء أو أذكياء، فى هذه المهنة .

همَّ (مجدى) بإلقاء سؤال آخر، لولا أن توجَّه اللواء (حلمى) نحو (رشاد) مباشرة، وهو يسأله :

ـ ماذا بك يا سيِّد (رشاد) ؟!

خُيِّل له أن (رشاد) سيفقد الوعى، من شدة شحوبه وامتقاعه، وهو ينكمش فى مقعده أكثر وأكثر، ويقول بصوت رجل يحتضر :

ـ إننى .. إننى مريض .

رمقه اللواء (حلمى) بنظرة فاحصة، وهو يقول :

ـ يالله من مرض عنيف، إنك تبدو كما لو أنك ستفقد الوعى.

ارتجفت شفتا (رشاد) فى عنف، وهو يحدِّق فيه، ويجاهد لانتزاع أية كلمات من حلقه، ولكن اللواء (حلمى) استدار إلى باب حجرة الاجتماعات، وهو يتابع :

ـ ثم إنك تحدِّق طوال الوقت فى هذا الباب .

انعقد حاجبا (إدوارد) فى شدة، فى حين قال (رشاد)، وهو على وشك أن يفقد الوعى بالفعل :

ـ هذا الباب ؟!

اتجه اللواء (حلمى) نحو باب حجرة الاجتماعات مباشرة، وهو يقول فى حزم :

ـ تُرى ماذا يوجد خلف هذا الباب ؟!

زاغت عينا (رشاد) فى محجريهما، فى حين عاد (إدوارد) يشدّ قامته فى توتر، وهو يقول :

ـ ألديك إذن بالتفتيش يا سيادة اللواء .

أمسك اللواء (حلمى) مقبض الباب، وهو يقول فى بساطة :

ـ وهل يستحق الأمر هذا ؟!

التقى حاجبا (إدوارد) مرة أخرى، دون أن يجيب، فأدار اللواء (حلمى) المقبض، ودفع الباب، و ....

ولم يكن هناك أحد ..

حجرة الاجتماعات كانت خالية تمامًا، على نحو شعر معه (رشاد) وكأن روحه قد رنَّت إليه، فاعتدل فى مقعده، وقال :

ـ إنها خالية ، كما كان ينبغى أن تتوقَّع ياسيادة اللواء .

استدار إليه اللواء (حلمى) ، قائلاً :

ـ ومن الواضح أنها تعدّ دواءً جيّدًا لمرضك ياسيِّد (رشاد) .

مع آخر حروف كلماته ، ارتفع رنين هاتف العقيد (مجدى) المحمول ، فالتقطه فى سرعة ، وتساءل :

ـ من المتحدّث ؟!

رأى الجميع حاجبيه ينعقدان فى شدة وتوتر ، فسأله اللواء (حلمى) فى قلق بالغ :

ـ ماذا حدث ؟!

رفع (مجدى) عينيه إليه ، مجيبًا فى عصبية :

ـ إنها (غادة) .

سأله اللواء (حلمى) فى لهفة :

ـ ما أخبارها ؟!

ازدرد (مجدى) لعابه فى صعوبة ، وأجاب :

ـ لقد توقَّف قلبها عن النبض .

واتسعت عينا اللواء (حلمى) ...

بكل الارتياع ..

* * *

أوقف (ماريو) سيارة الشركة الكبيرة ، عند تلك الحافة ، أعلى جبل المقطمّ ، والتفت إلى (إبراهيم) ، قائلاً :

ـ هذا المكان يبدو مناسبًا .. أليس كذلك ؟

غمغم (إبراهيم) ، وهو يتلفَّت حوله :

ـ بلى .. إنه مرتفع بما يكفى ، ولن يلمحنا أحد من هذه الزاوية .

فرك (ماريو) كفيه ، قائلاً :

ـ عظيم .

وغادر السيارة ، مضيفًا فى جذل وحشى :

ـ الطبيعة عندكم جميلة للغاية ، والمشهد رائع من هنا .

غمغم (إبراهيم) فى عصبية ، وهو يلحق به :

ـ هل أصبحت رومانسيًا فجأة ؟!

قهقه (ماريو) ضاحكًا فى شراسة ، وقال :

ـ رومانسيًا ؟! كلاً بالتأكيد ، ولكن عمليات القتل تملأ نفسى بنوع من النشوة ، لا يمكننى وصفه .

غمغم (إبراهيم) ، وهو يفتح حقيبة السيارة :

ـ ياللبشاعة !

قهقه (ماريو) مرة أخرى ، وهو ينحنى ليرفع جسد (نديم) على كتفه ، ثم اتجه به نحو الحافة ، قائلاً :

ـ انتظر حتى تَرى جسده يهوى من حالْق ؛ لتدرك ما أعنيه بالنشوة :

مطَّ (إبراهيم) شفتيه ، وهو يسير إلى جواره ، حتى بلغا الحافة ، فقال (ماريو) ، وعيناه تتألقان فى وحشية :

ـ هيا أيها المحامى .. قل وداعًا لهذه الدنيا .

وفى هذه المرة ، جلجلت ضحكته ، فى المنطقة كلها .. ضحكته الوحشية .. القاتلة .

* * *

تابع الجزء الأخير ، فى الكتاب القادم
بإذن الله

الزمكان

(دراسة)

١ ـ المصطلح ..

• ياله من عنوان ، وياله من مصطلح ، يتصدَّر الدراسة هذه المرة ..

الزمكان ..

مصطلح لم تألفه عيوننا ، وآذاننا ، ولم تدركه عقولنا ، ربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ، على الرغم من أنه مصطلح علمى بحت ، يتم استخدامه (واستعدوا للمفاجأة) ، منذ عام ١٩٠٥م ..

نعم .. إنك لم تخطئ قراءة التاريخ ، وهو ليس خطأ مطبعيًا بالتأكيد ، فالمصطلح مستخدم علميًا بالفعل ، منذ عام ألف وتسعمائة وخمسة .. أى منذ مايقرب من قرن كامل من الزمان ..

ففى ذلك العام ، نشر عالم شاب ، يُدعى (ألبرت أينشتين) ، نظرية علمية جديدة ، اعتبروها ثورة عنيفة فى عالم الفيزياء والرياضة ، وأطلق عليها اسم (النظرية النسبية الخاصة) ..

وفى تلك النظرية ، استخدم (أينشتين) ، وربما لأوّل مرة ، ذلك المصطلح العجيب المثير ..

الزمكان ..

والمصطلح ، ببساطة شديدة ، يعنى السفر عبر الزمان والمكان فى آن واحد ..

أو بمعنى أكثر شمولاً ، يعنى تفجُّر خيال العلماء إلى حد أو نحو لم يبلغه ، أو ينجح فى بلوغه أحد ، قبل أن يطرح (أينشتين) نظريته المثيرة .. جدًا ..

ففى ذلك الحين ، كان السفر عبر الزمان وحده ، يعدّ ضربًا من خيال جامح ، فجَّره الأديب ، والروائى ، والصحفى الإنجليزى (هربرت جورج ويلز) ، خريج جامعة (لندن) ، والمغرم بمطالعة العلوم ، عندما نشر تحفته الرائعة (آلة الزمن) ، عام ١٨٩٥م ..

ففى تلك الرواية ، وثب بطل (ويلز) عبر الزمن ، لينتقل من خلال آلته العجيبة ، إلى المستقبل البعيد ، الذى رسم له المؤلف حينذاك صورة ذهنية عبقرية ، بدأت بما يشبه المجتمع المثالى ، حيث يعيش السكان المنعمون ، فى عالم أنيق جميل ، تحيط به الأنهار والزهور والحدائق الغنّاء من كل جانب ، قبل أن يكشف البطل وجود عالم آخر تحت الأرض ، سكانه من أشباه الوحوش ، الذين يعملون بلا كلل أو ملل ، للإبقاء على عالم مافوق الأرض ، الذى اتضح فى النهاية أنه مجرّد مزرعة طعام لهم ، حيث يختطفون سكانه ، ليأكلوهم كالأغنام ..

وتلك الصورة أفزعت عالم نهايات القرن التاسع عشر ، وبهرتهم فى الوقت ذاته ، خاصة وأن (ويلز) كان أوّل من أشار إلى تفوّق جنس العمال ، فى المجتمعات الصناعية ، مع مرور الزمن ..

وأوّل من تحدّث أيضًا عن آلة الزمن ..

تلك الآلة المعجزة ، التى خلبت لب المؤلفين ، منذ زمن (ويلز) ، وحتى يومنا هذا ، لما تمتلكه من قدرة فريدة مدهشة ، على أن تخترق براكبها نهر الزمن ، وتنقله إلى أى زمن يشاء ، فى طرفة عين ..

وبعد (ويلز)، تفجَّر خيال الكتاب والمؤلفين، ورجال الفن أيضًا، وانهمرت علينا عشرات التخيلات والأفكار، وسرح خيالنا مع الفكرة، و ....

وفجأة، خرجت إلى العالم نظرية النسبية الخاصة، وأطلق (ألبرت أينشتين) مصطلحه الجديد، مع معادلات رياضية مؤكدة، تفتح عيوننا على ظاهرة جديدة، وتعديل جوهرى لكل ما عرفه العالم من قواعد قبلها ..

فلأوَّل مرة، أضاف (أينشتين) إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة، الطول، والعرض، والارتفاع، بعدًا رابعًا، لم يشر إليه عالم واحد من قبله ..

الزمن ..

وفى نظريته المدهشة، التى حيَّرت علماء جيله، أثبت (أينشتين) أن الزمن بعد رئيسى فى الحياة، وفى كل القياسات الجادة، فى الرياضيات والفيزياء، وباعتباره كذلك، فهو ككل الأبعاد الأخرى، يمكن السير فيه إلى الأمام والخلف أيضًا ..

وكانت هذه مفاجأة مذهلة، سواء للعلماء، أو للعامة أيضًا ..

فمع النظرية الجديدة، لم تعد قصة (ويلز) عن السفر عبر الزمن مجرَّد خيال محض ..

لقد صار احتمالاً علميًا منطقيًا أيضًا ..

واعترض علماءَ بدايات القرن العشرين، واستنكروا، واستهجنوا، ورفضوا كل ما جاء به (أينشتين) ..

أما الأدباء والمفكرون، فقد فجَّر الأمر خيالهم أكثر وأكثر، وأطلق فى أعماقهم ألف فكرة، ومليون احتمال، راحوا ينقلونها جميعها إلى الورق، ليمتعوننا بسيل من الكتب والأفكار والروايات، والخيالات الجامحة، التى تصوَّرت فكرة عودة البعض إلى الزمن الماضى، لإحداث تغيرات، تؤدّى بدورها إلى تغيير أحداث جوهرية، تمتلئ بها كتب التاريخ ..

وفى الوقت الذى أقنع فيه (أينشتين) كل العلماء بنظريته وعبقريته، وخرج إليهم بنظرية النسبية العامة، عام ١٩١٥م، كان فريق من الأدباء قد تبنى بالفعل فكرة السفر عبر الزمن، وآمن بإمكانية حدوثها، بل وصار يحلم بهذا أيضًا، ويدافع عنه بحماسة واستماتة لاحدود لهما ..

ففكرة السفر عبر الزمن مثيرة حتمًا ، وتمنح الإنسان أملاً خياليًا فى تغيير حاضره ، ومستقبله ، بل وربما مستقبل العالم أيضًا ..

ولأنه من الطبيعى أن يكون لكل فعل رد فعل ، مساوٍ له فى القوة ، ومضادٍ له فى الاتجاه ، فقد تبنى فريق من العلماء فكرة عكسية ، ترفض بعنف احتمالية السفر عبر الزمن ، وتصفه بالخبل الوهمى ..

ولقد استند العلماء الرافضون إلى نظرية علمية فلسفية ، أطلقوا عليها اسم نظرية (السببية) ..

وتلك النظرية تعتمد على أن العالم كله وحدة واحدة ، فلو تمكّن شخص ما من السفر عبر الزمن إلى الماضى ، وأحدث تغيرًا ، مهما بلغت بساطته ، فسيؤدى هذا إلى حدوث موجة متزايدة من التغيرات ، يمكن أن يتغيَّر معها تاريخ العالم كله ، مما يهدِّد وجوده هو نفسه فى المستقبل ..

ثم إن قدرة المرء على إحداث تغيير فى المستقبل ، تمنحه قدرات هائلة ، لايمكن أن تتوافر لبشرى ، مهما بلغت قوته أو مكانته ..

فلنفترض مثلاً أن أحد العلماء وقد رأى أن الحرب العالمية الثانية كانت لها ويلات رهيبة ، وأن هذا كان بسبب أفكار (هتلر) وتعنتاته ، فاستخدم آلة زمن وهمية ، وسافر إلى الماضى ، وقتل (هتلر) ، قبل أن يتبوّأ منصبه فى الحزب النازى ، فهل يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ؟!

مستحيل ..

فعدم اندلاع الحرب العالمية الثانية سيغيِّر مصير العالم كله ، وتوازناته ، وأعداد سكانه ، وقدراته التكنولوجية والعلمية ، مما يعنى أن آلة الزمن ، التى سافر هو بها ، لن تتاح له فى الغالب ، مما يمنعه من السفر ، وتغيير الماضى ، و ....

وهكذا ندخل فى دائرة مفرغة غريبة ، لايمكن حسمها ، أو فهمها ، أو الاقتناع بإمكانية حدوثها أبدًا ..

ثم ماذا لو سافر آخر ، وأنقذ (هتلر) ..

وبعدها جاء ثالث ، لينفيه إلى (روسيا) ..

عندئذ سيرتبك التاريخ كله ، على نحو أشبه بالعبث ، الذى لايمكن أن يسمح به الخالق (عزَّ وجلّ) ..

إذن فالفكرة نفسها عبثية ، وهمية ، خيالية ، يستحيل حدوثها فى عالم الواقع ..

ولقد تابع (أينشتين) كل هذه المحاورات والمداورات ، والمناظرات الحامية ، بين مؤيّدى ومعارضى فكرة السفر عبر الزمن ، دون أن يعلّق على هذا أو ذاك بحرف واحد ؟ لأن نظريته لم تكن تسعى خلف هذه السخافات والترهات ..

ثم إنه لم يشغل نفسه لحظة بعملية السفر عبر الزمن وحده ..

بل بالسفر عبر الزمكان ..

أى عبر الزمان والمكان فى آن واحد ..

ولكى نفهم مايعنيه هذا ، ينبغى أن نتخلّى عن فكرة السفر عبر الزمن ، ونركز كل تفكيرنا على السفر عبر الفضاء ..

نعم .. عبر الفضاء الكونى ، فهذا بالضبط ماكان يعنيه (أينشتين) ، عندما أطلق مصطلحه الجديد المثير هذا ، فقد جاءت نظريته لتفتح الطريق ، أمام فكرة السفر عبر الفضاء ، إلى مسافات لم يبلغها العقل البشرى بعد ، عن طريق السفر فى الزمان والمكان معًا ..

فمنذ تطوّر علم الفلك ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ظهر مصطلح محبط ، لكل من كانوا يحلمون بالسفر إلى النجوم البعيدة حينذاك ..

مصطلح السنة الضوئية ..

وهذا المصطلح يعنى المسافة التى يقطعها الضوء ، لو انطلق فى الفضاء ، لمدة سنة زمنية كاملة ، باعتبار أن سرعة الضوء تساوى مائة وستة وثمانين ألف ميل ، فى الثانية الواحدة ..

هل يمكنك أن تتصوّر إذن المسافة التى يمكن أن يقطعها الضوء ، فى سنة كاملة ؟!

إنها ستة عشر مليارًا ، وسبعون مليونًا ، وأربعمائة ألف ميل .. أى حوالى خمسة وعشرين مليارًا ، وثمانمائة واثنين وستين مليونًا ، وثمانمائة وواحد ألف ، وثمانمائة وثمانية عشر كيلومترًا ..

هل أزعجك الرقم ، وبدا لك ضخمًا أكثر مما ينبغى ؟! استعد للمفاجأة إذن ؛ فهذه المسافة الهائلة تساوى وحدة فلكية واحدة ، فى قياس المسافات الكونية ، وتحديد بعد النجوم الأخرى عن مجرتنا (سكة اللبّانة) .

ولو أن أقرب النجوم إلينا يبعدنا وحدة فلكية واحدة أى سنة ضوئية واحدة ، فهذا يعنى أن وصولنا إليه يحتاج إلى سفينة فضاء خاصة ، يمكنها أن تنطلق بسرعة الضوء ، لمدة سنة كاملة ، دون أن تتوقَّف ، أو تخفض سرعتها لحظة واحدة ..

والاحتمال يبدو ، من الناحية المنطقية ، والرياضية أيضًا ، أمرًا مستحيلاً بكل الوجوه ..

لهذا كانت المفاجأة الجديدة ، أننا نستطيع بلوغ ذلك النجم المفترض ، فى زمن أقل من هذا بكثير ، ودون حتى أن نبلغ سرعة الضوء ..

وهذا القول علمى .. تمامًا .

★ ★ ★

٢ ـ الثقوب السوداء ..

• عندما فجَّر (أينشتين) مصطلح (الزمكان) ، فى نظريته النسبية ، كان السفر عبر الزمان والمكان مجرَّد حلم مستحيل ، وخيال جامح غير منطقىّ ..

ولكن (أينشتين) وضع أمامنا معلومة علمية جديدة مثيرة للغاية ، وأطلق عليها اسم (تمدُّد الزمن) ..

وفى نظرية (أينشتين) ، نجد أنه لو سافر رائد فضاء ، فى مركبة تنطلق بسرعة الضوء ، إلى نجم يبعد عنا سنة ضوئية واحدة ، ثم عاد إلى الأرض ، فسيجد أن العامين ، اللذين قضاهما فى رحلته ، قد أصبحا نصف قرن من زمن الأرض ..

وبمعنى أكثر وضوحًا ، لو أن لذلك الرائد شقيق توءم ، بقى على الأرض ، وودَّع شقيقه ، وكلاهما فى العشرين من العمر ، عند بدء تلك الرحلة الخرافية ، فسيعود الأوَّل من رحلته ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، ليجد توءمه فى السبعين من العمر !!!

والتفسير الذى وضعته نظرية (أينشتين) لهذا ، هو أن

عقارب الساعة سترتبط بالزمن الذى تنطلق به سفينة الفضاء ، أى أنها ستسير بنفس السرعة ، فى حين أن الساعة الثابتة على الأرض ، ستتوافق مع سرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس فحسب ..

ولو أردت نصيحتى ، فلا ترهق ذهنك فى محاولة فهم واستيعاب هذا الأمر المعقّد ، فقد أثبته العلماء رياضيًا وعمليًا ، خلال قرن من الزمان ، ويكفينا أن نمنحهم ثقتنا فحسب ، كما منحناها لكل النظريات العلمية الأخرى ، فى كل المجالات ..

المهم أن هذه الفرضية كانت أوّل إشارة إلى السفر عبر الزمان والمكان ، أو عبر الزمكان كما أسماه (أينشتين) ..

ولكن نظريته أشارت أيضًا إلى أمر آخر ، اعتبره العلماء أكثر أهمية وخطورة بكثير ، فى عملية السفر عبر (الزمكان) ..

إلى الثقوب السوداء ..

ومصطلح (الثقوب السوداء) هذا مصطلح حديث نسبيًا ؛ فأوّل من استخدمه هو الفلكى الأمريكى (جون هويلر) ،

عام ١٩٦٩م ، ليصف به نظرية قديمة ، تعود إلى أكثر من قرنين من الزمان ..

وبالتحديد إلى عام ١٧٩٣م ..

ففى ذلك الزمن ، نشر (جون ميتشل) ، الجيولوجى ، ورئيس جامعة كمبردج ، بحثًا جديدًا ، أشار فيه إلى أن بعض النجوم لها كثافة عالية جدًا ، مما يمنحها قوة جذب هائلة ، تمنع الضوء نفسه من الفرار منها ، مما يجعلها تبدو أشبه بفراغات سوداء ، بالنسبة لأى شخص يحاول رصد الكون ..

ولقد اكتفى (جون ميتشل) بقوله هذا ، ولم يحاول التوغّل فى الأمر أكثر ، ربما لقلة المعلومات الفلكية المتاحة فى عصره ، أو لنقص الإمكانيات العلمية حينذاك ..

ثم جاءت النظرية النسبية ، لتحمل إلينا مبدأً علميًا جديدًا ، وهو أن الضوء لايسير فى خطوط مستقيمة ، كما كنا نتصوّر ، بل إنه ينحنى ، عندما يمرّ إلى جوار نجم عالى الكثافة .

وعندما تبلغ كثافة النجم أقصاها ، فإن الفضاء نفسه يتحدّب حوله ، مما يجذب الضوء إليه فى عنف ، على نحو لايسمح له بالإفلات من جاذبيته الشديدة ، فيبتلعه النجم فى شراهة مالها من مثيل ..

ولأن الضوء يفشل فى الإفلات من الجاذبية الهائلة ، فهو لا يصلنا قط ، لذا فكل ما نراه هو ثقب أسود ، يختلف حجمه من مكان إلى آخر ..

ولو أردت أن تفهم فكرة الثقوب السوداء أكثر وأكثر ، راقب مصفاة حوض المطبخ ..

ولا داعى للضحك والسخرية هنا ، فلو أنك ملأت الحوض عن آخره بالماء ، ثم سحبت سدادة المصفاة ، فستراها تبتلع المياه فى سرعة وقوة ..

هذا بالضبط ما يفعله الثقب الأسود بما حوله ، بافتراض وجود مصدر دائم للمياه ، يغذى الحوض ، وجهاز شفط قوى فى قلب المصفاة ..

ولقد جذبت الثقوب السوداء انتباه واهتمام العلماء لسنوات وسنوات ، كظاهرة مثيرة فى الفضاء الكونى ، قبل أن تخرج نظرية مدهشة جديدة ..

نظرية تقول : إن ما تجذبه الثقوب السوداء إليها ، وما تبتلعه فى مركزها بلا هوادة ، لا يفنى أو يتلاشى داخلها ، وإنما يعبرها

إلى نفق ذى اتجاه واحد ، ليخرج من نهايته ، عبر ثقب أبيض كبير ، فى عالم آخر ..

أو مكان آخر ..

وكانت هذه النظرية أشبه بقنبلة علمية ، تفجَّرت بمنتهى العنف ، فى كل الأوساط ..

فالنظرية تعنى ، وبكل حسم ، أن عبور ثقب أسود ، سينقلنا عبر الزمان والمكان إلى بقعة أخرى فى الكون ..

بقعة ربما تبعد آلاف ، بل ملايين السنوات الضوئية .

وهذه طفرة علمية واتصالية على كل المستويات ..

سفينة الفضاء ، التى تنطلق نحو ثقب أسود ، وتخترقه ، ستنتقل عبر الزمان والمكان إلى مناطق أخرى بعيدة ..

بعيدة جدًا ..

إلى مجرات وأكوان لا يمكننا حتى أن نرصدها ، قبل مرور ملايين السنين على فنائها ..

وقوة هذه النظرية تكمن فى أنها الحل الأكيد والمدهش ، للسفر إلى النجوم البعيدة جدًا جدًا ، فى هذا الكون اللانهائي ..

وأوّل ما سيتبادر إلى الأذهان الآن ، هو : مادام العلماء قد توصّلوا إلى هذا ، فلماذا لم يرسلوا رحلات إلى هذه النجوم البعيدة جدًا ؟!

والجواب بسيط للغاية ، ويكمن فى ثلاث نقاط رئيسية ..

أوّلها أن مابلغناه من تقدُّم تكنولوجى وصناعى ، لايكفى بعد لإنتاج سفينة الفضاء القوية ، التى يمكنها بلوغ ثقب أسود ، واختراقه أيضًا ، لأن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة ، قدَّرها العلماء بمليون ضعف لما تستهلكه الولايات المتحدة الأمريكية كلها من الطاقة ، طوال عام كامل ..

وليس من الضرورى أن نؤكّد هنا أن الحصول على مثل هذه الطاقة مازال مستحيلاً بكل المقاييس ، فى زمننا هذا ..

والنقطة الثانية ، هى أن العلماء لايمكنهم ، حتى هذه اللحظة ، تحديد المكان الذى ستنتقل إليه سفينة الفضاء الخيالية تلك ، عبر الكون الفسيح ، فعلى الرغم من قدرتهم على تحديد مواقع بعض الثقوب البيضاء بالفعل ، إلا أن أحدًا لايمكنه قط تحديد أيها سيكون مخرجًا لأى ثقب أسود فى الكون ..

والنقطة الثالثة ترتبط تمامًا بالثانية ، فالسفينة التى ستعبر

الثقب الأسود ، لتبرز فى مكان ما من الكون ، لن يمكنها إجراء أية اتصالات بالأرض ، منذ وصولها إلى مجال جاذبية الثقب الأسود ، حيث لن تنجح أية إشارات فى الإفلات من جاذبيته الرهيبة ، مهما بلغت قوتها ..

وعندما تصل السفينة إلى المخرج ، سيبعد موقعه عن أرضنا بآلاف ، وربما ملايين السنوات الضوئية ، وأية إشارة أو معلومات ترسلها ، من موقعها هذا ، ستحتاج إلى آلاف أو ملايين السنين ، لنلتقطها على أرضنا ..

وحتى لو افترضنا أننا نعلم بالضبط الموقع الذى ستخرج منه السفينة الوهمية ، وأننا قد ركزنا كل مناظيرنا ومراصدنا الفلكية نحوه ، وأنه يبعد عنا مليون سنة ضوئية فحسب ، فهذا يعنى أننا سنرصد السفينة بعد وصولها بمليون سنة ، وهو الزمن الذى تستغرقه صورتها ، للوصول إلينا بسرعة الضوء ..

هل رأيتم كيف يستحيل هذا ، لأكثر من سبب ؟!

ولكن ماترونه أنتم لم يحبط العلماء ، بل شحذ عقولهم ، وفجَّر خيالاتهم وطاقاتهم ، ودفعهم للبحث عن حلول منطقية وعلمية لهذه المشكلة ..

وفى البداية ، جاء الحل بسيطًا للغاية ..

فعندما تصل سفينة الفضاء الوهمية إلى هدفها ، سيكون عليها أن تبدأ مهامها بالبحث عن ثقب أسود آخر ، قريب من موقع هبوطها ، ينتهى بثقب أبيض ، قريب من أرضنا ..

بمعنى أبسط وأدق ، البحث عن طريق للعودة ، مماثل لطريق الذهاب .. وغير طريق العودة هذا ، يمكن لسفينة الفضاء الوهمية أن ترسل إشاراتها إلى الأرض ، وأن تروى للمتابعين كل ماوجدته ، ورأته ، وخبرته ، فى رحلتها الفريدة هذه ..

فى هذه الحالة ، ستبلغ الإشارة أرضنا ، فى نفس الوقت الذى استغرقته السفينة فى رحلتها تقريبًا ، وليس الوقت الفعلى ، الذى يفصلنا عنها ..

وهذه صورة مثلى للسفر عبر (الزمكان) ..

صورة أرضت فريقًا من العلماء ، وأثلجت صدره ، وجعلته يسترخى ، متصورًا أن الحل قد جاء على طبق من العبقرية ..

ولكن فريقًا آخر لم يرض بهذا الحل أبدًا ، وقال إنه يحوى مجموعة من الافتراضات ، لايمكن التأكد منها قط ، فماذا لو لم تجد سفينة الفضاء الوهمية ثقبًا أسود عكسيًا ؟!

بل وماذا يضمن أن تصل السفينة إلى منطقة تحوى ثقوبًا سوداء من الأساس ؟!

وماذا أيضًا لو افترضنا أن الثقوب السوداء ، فى منطقة الهبوط ، ستقود إلى مناطق أبعد وأبعد ، فى الكون السرمدى ؟!

وفى الوقت الذى تناحر فيه الجانبان ، وكل فريق يسعى لتأكيد وإثبات وجهة نظره ، برز فريق ثالث بكشف مذهل ..

كشف قلب كل المقاييس والموازين رأسًا على عقب ..

وبمنتهى القوة .

★ ★ ★

٣ ـ ديدان فى الفضاء ..

• فى منتصف الثمانينات ، من القرن العشرين ، خرجت إلينا السينما الأمريكية بسلسلة من أروع وأنجح أفلام الخيال العلمى التى أبدعها المخرج (ستيفن سبيلبيرج) ، تحت عنوان (العودة إلى المستقبل) ..

وفى هذه السلسلة ، كان البطل الشاب (مارتى) يسافر عبر الزمن ، إلى الماضى والمستقبل ، بوساطة سيارة زمنية ؛ ليغيِّر طبيعة أسرته ، وينقذ والده ، ثم أبناءه فيما بعد ..

ويعود جزء من نجاح الفيلم إلى الإبهار التكنولوجى والخدع السينمائية المتقنة ، فى حين يعود الجزء الأكبر إلى الفكرة المثيرة ، التى تمنح بشرى فرصة تغيير الأحداث ، مع سفره عبر الزمن ..

ومن المؤكَّد أن كل من شاهد سلسلة الأفلام تلك ، وكل من انبهر بها ، ومن أعجبته وأسعدته فكرتها ، قد تعامل مع الأمر باعتباره خيالاً محضًا ..

ولكن المدهش أن هذا ليس رأى العلماء ، فى زمننا هذا ..

فمنذ سنوات عديدة ، توصَّل فريق من العلماء إلى أن الكون يحوى ما يمكننا أن نطلق عليه اسم (الأنفاق الزمنية الدودية) ..

وتلك الأنفاق ، التى تحمل اسمها من شكلها ، الذى يبدو أشبه بالدودة ، ذات طبيعة خاصة جدًا ، فكل ما يعبرها يكتسب طاقة سالبة ، بحيث يخرج منها فى زمن سابق لتاريخ دخولها ..

أو بمعنى أدق ، يسافر عبر الزمن إلى الماضى ..

وهذا كلام علمى بحت ..

إذن ، فبهذا الكشف المدهش ، لم يعد السفر عبر الزمن محض خيال ، وإنما صار حقيقة علمية ، لها ما يؤيِّدها ويثبتها ..

والعلماء يؤمنون ، على نحو ما ، بفكرة رؤية الماضى هذه ، وبالذات علماء الفلك ، فعندما يرصد أحدهم نجمًا ، يبعد عنا مائة سنة ضوئية ، فهو يعلم أنه إنما يرصد فى الواقع ما كان عليه ذلك النجم ، منذ مائة سنة ، وليس ما هو عليه الآن بالفعل ..

إذن فهو يرصد ـ عمليًا ـ ماضى ذلك النجم، وليس حاضره ..

ولو افترضنا أن ذلك النجم مأهول بحضارة عاقلة، وأنه لدينا راصد أكثر قوة بآلاف المرات، فهذا سيعنى إذن أننا سنستطيع أن نرصد فى حاضرنا، كل الأحداث على ذلك النجم، منذ مائة سنة ..

أى أننا سنرصد ماضيه، وتاريخه ..

وهذا ـ مع شىء من المرونة ـ نوع من السفر عبر الزمن ..

ومن الناحية العلمية، هو سفر عبر الزمان والمكان معًا ..

أو عبر (الزمكان) ..

وعندما كشف العلماء أنفاق الزمن الدودية هذه، ثارت موجة عنيفة من الجدل، وعاد الحديث مرة أخرى عن السببية، وعن استحالة انتقال بشرى إلى الماضى، مهما كانت المبررات العلمية ..

وهنا خرجت نظرية أخرى، لتجعل الأمر أكثر قبولاً ..

فالمسافر إلى الماضى، وفقًا للنظرية الجديدة، سيسافر كمشاهد، وليس كمشارك ..

أو بمعنى أدق، سيمكنه رؤية ما حدث فى الماضى، بكل الدقة والتفاصيل، ولكن كما تشاهد أنت فيلمًا قديمًا على شاشة تلفاز حديث ..

ولكن لن يكون باستطاعته التدخُّل فى الأحداث قط ..

إنه حتى لن يجد الماضى فى صورة مادية، بل مجرَّد صور ضوئية، لأحداث وقعت وانتهت منذ عشرات، أو آلاف، أو حتى ملايين السنين ..

ثم إن السفر إلى الماضى، عبر الأنفاق الزمنية الدودية تلك، هو أمر نظرى فحسب، إذ إنه من الضرورى أن ينطلق المسافر عبرها، بسرعة تزيد فعليًا على سرعة الضوء، وهذا مستحيل تمامًا، حتى بالنسبة للنظرية النسبية الخاصة، والعامة ايضًا ..

فوفقًا للنظريتين، ستزداد كتلة الجسم، مع زيادة سرعته، حتى يبلغ سرعة الضوء، وعندئذ ستصبح كتلته لانهائية، مما يعنى أنها ستحتاج أيضًا إلى طاقة لانهائية لدفعها ..

والأمران مستحيلان تمامًا ..

إذن فلاداعى للقلق والغضب والاعتراض ، إذ إن السفر عبر الزمن قد صار ممكنًا نظريًا ، ومستحيلاً عمليًا ..

ولكن مهلاً .. دعونا نستخدم كلمة (كان) ، بدلاً من كلمة (صار) هذه ..

فقبل حتى بداية التسعينات ، من القرن العشرين ، كان الجزء الخاص بسرعة الضوء ، من نظريات (أينشتين) ، التى اعتبرتها السرعة القصوى ، مستحيلة البلوغ ، فى الكون كله ، قد تراجع كثيرًا ، مع الكشوف الحديثة ..

وأول هذه الكشوف ، كان ظهور أجسام كونية ، تتحرك أسرع من الضوء ..

نعم .. إنك لم تخطئ قراءة العبارة ، ولم تخطئ فى تفسيرها ..

هناك بالفعل أجسام كونية ، تتحرك بسرعات تفوق سرعة الضوء ..

ليس هذا فحسب ، ولكنها لايمكن أن تخفض سرعتها أيضًا إلى سرعة الضوء أو أقل ، وإلافنيت وتلاشت على الفور ..

وهذا يضرب نظرية (أينشتين) من جذورها ، فى هذه النقطة بالتحديد ..

ولقد جاء كشف تلك الجسيمات الأسرع من الضوء بالمصادفة البحتة ، ولكن العلماء تأكدوا من وجوده ثلاث مرات على الأقل ، قبل أن يعلنوا كشفهم هذا ..

ولقد فسَّر ذلك الكشف بعض الغموض ، الذى أحاط ببعض التسجيلات ، التى لم يمكن فهمها فى الماضى ..

بل وتحقق معمليًا أيضًا ، فى أواخر القرن العشرين ، من خلال تجربة معملية علمية ، تم قياسها بالفمتو ثانية ، وبأجزاء من المليون من الثانية ..

ففى المعمل ، تم إطلاق جسيم دقيق ، بسرعة تفوق سرعة الضوء ، حتى إنه قد بلغ هدفه ، قبل أن ينطلق من مصدره ..

ودعنا نعيد العبارة مرة أخرى ، حتى لايتصوَّر أحدكم أنه قد أخطأ قراءتها ..

لقد بلغ الجسيم الدقيق (هدفه) ، قبل أن ينطلق من (مصدره) ..

وبدقة أكثر نستطيع أن نقول إن ذلك الجسيم قد سافر عبر الزمن بالفعل إلى الماضى ..

والتجربة نشرتها كل المراجع العلمية ، وأشارت إليها كل الصحف العالمية ، باعتبارها فتحًا مذهلاً ، فى عالم السفر عبر (الزمكان) ..

بل هى أوّل تجربة عملية معملية ، يتحقّق فيها هذا بوضوح تام ، وعلى نحو لايقبل الجدل أو الشك ..

ولكن الواقع أنها ليست أوّل تجربة فى هذا الشأن على الإطلاق ..

المهم أن تلك التجربة قد أعادت فتح باب التساؤل المهم ، المثار طوال مايقرب من قرن كامل من الزمان ..

هل السفر عبر الزمن حقيقة أم خيال ؟!

هل يمكن أن يأتى وقت ، يتمكّن فيه البشر من السفر عبر الزمن ، إلى الماضى أو المستقبل ، كما أشارت قصة (ويلز) ، فى أواخر القرن الماضى ؟!

أعنى هل يمكن أن يتحقّق هذا فعليًا وعمليًا ؟!

ولأن التساؤل ظلّ مطروحًا ، فجهود العلماء ظلّت مستمرة أيضًا ..

وفى ثلاث قارات على الأقل ، راحت فرق من العلماء تسعى جاهدة ، وتعمل ليل نهار ؛ للتوصّل إلى جواب السؤال الأزلى ..

ومع الجهود ، ظهرت حلول رياضية عديدة ؛ للتغلّب على صعوبات ، أو فلنقل مستحيلات السفر عبر الزمن ، من خلال الأنفاق الزمنية الدودية ..

ومن أشهر تلك الحلول ، وصف وضعه العلماء لمادة خاصة ، يمكن أن نطلى بها جدران أنفاق الزمن الدودية ، بحيث توقف كل تأثيراتها العنيفة ، على أى شىء ينطلق عبرها ..

ووفقًا للنظرية ، ولكل المعادلات الرياضية والفيزيقية ، أصبح عبور تلك الأنفاق الزمنية الدودية ممكنًا ، بعد طلاء جدرانها بتلك المادة ..

ففى تلك الحالة ، تنتفى الطاقة السلبية داخلها ، ولايحتاج عبورها إلى تلك السرعات الفائقة جدًا ، والتى تتجاوز سرعة الضوء ..

كل شىء سيصبح مثاليًا ، مع مشكلة واحدة بسيطة ..

أن تلك المادة لا وجود لها على الإطلاق ..

ليس فى الماضى ، أو الحاضر .. أو حتى المستقبل القريب ..

باختصار ، تلك المادة مجرَّد فرضية علمية ، ولا يوجد شبيه لها على كوكب الأرض كله ، بل ولا توجد حتى وسيلة علمية أو تكنولوجية ، أو تقنية ، تتيح صنعها ، أو صنع أى بديل مناسب لها ..

ولا تجعل هذا يزعجك أو يخنقك ، فكل العلوم والنظريات المدهشة التى غيرت تاريخ الأرض ومسار العلم ، بدأت هكذا ..

مجرد فرضية جدلية ، تتحول إلى مجموعة من المعادلات الرياضية ، ثم إلى حقيقة واقعة ، بجهود وعقول علماء آخرين ..

لذا فقد راجع العلماء أوراقهم ، بحثًا عن فكرة جديدة ، أو آثار فكرة قديمة ، تتيح لهم فرصة السفر عبر الزمن ..

وهنا كانت أمامهم مفاجأة ..

مفاجأة لم تخطر ببالهم ..

أبدًا ..

* * *

٤ـ السؤال ..

• فى بداية الثمانينات ، كان حلم العلماء الأوَّل هو بلوغ مرحلة ، اعتبروها ذروة الاتصالات والانتقالات فى الكون ، وأطلقوا عليها اسم (الانتقال الآنى) ..

ومصطلح (الانتقال الآنى) هذا يعنى الانتقال فى التو واللحظة ، من مكان إلى آخر ، يبعد عنه بمسافة كبيرة .. أو بمعنى أدق .. الانتقال الآن ، وفورًا ..

وهذا الانتقال هو ما نراه فى حلقات (رحلة النجوم) .. تلك الحلقات التليفزيونية الشهيرة ، التى تحولت إلى سلسلة من أفلام الخيال العلمى الناجحة ، بالاسم نفسه ، والتى نرى فى كل حلقاتها شخصًا على الأقل ، يدخل إلى أنبوب زجاجى ، لينتقل بوساطة شعاع مبهر إلى أنبوب آخر ، فى مكان آخر ..

فكرة مثيرة مدهشة ، تختصر الزمان والمكان إلى أقصى حد ممكن ، وكل فكرة مثلها ، نجحت فى إثارة اهتمام وخيال العلماء ، الذين يتعاملون مع كل أمر باعتباره ممكن الحدوث ، لو نظرنا إليه من زاوية ما ...

وبينما اكتفى المشاهد العادى بالانبهار بالفكرة، أو الاعتياد عليها، كان العلماء يكدون ويجتهدون؛ لإيجاد سبيل علمى واحد إليها ..

وعدنى بأنك لن تشعر بالدهشة والمفاجأة، عندما أخبرك أنهم قد نجحوا فى هذا، إلى حد ما ..

نعم .. نجحوا فى تحقيق ذلك (الانتقال الآنى) فى المعمل، ولكن هذا لم ينشر على نطاق واسع .. السؤال هو لماذا ؟!

ماداموا قد توصّلوا إلى كشف مذهل كهذا، فلماذا لم يُنشر الأمر، باعتباره معجزة علمية جديدة، كفيلة بقلب كل الموازين رأسًا على عقب ؟!

والجواب يحوى عدة نقاط مهمة كالمعتاد ..

فالانتقال، الذى نجح فيه العلماء، تم لمسافة تسعين سنتيمترًا فحسب، ومن ناقوس زجاجى مفرَّغ من الهواء، إلى ناقوس آخر مماثل، تربطهما قناة من الألياف الزجاجية السميكة التى يحيط بها مجال كهرومغنطيسى قوى ..

ثم إن ذلك (الانتقال الآنى)، تحت هذه الظروف المعقَّدة، والخاصة جدًا، لم ينجح قط مع أجسام مركبَّة، أو حتى معقولة الحجم ..

كل ما نجحوا فيه هو نقل عملة معدنية جديدة، من فئة خمسة سنتات أمريكية، من ناقوس إلى آخر ..

ثم إنه لم يكن انتقالاً آنيًا على الاطلاق، إلا لو اعتبرنا أن مرور ساعة وست دقائق، بين اختفاء العملة من الناقوس الأوّل، وحتى ظهورها فى الناقوس الثانى، أمرًا آنيًا !!

لذا، ولكل العوامل السابقة، اعتبر علماء أوائل الثمانينات أن تجاربهم، الخاصة بعملية الانتقال الآنى قد فشلت تمامًا ..

ولكن علماء نهاية التسعينات نظروا إلى الأمر من زاوية مختلفة تمامًا ..

فمن وجهة نظر بعضهم، كان ما حدث انتقالاً عبر (الزمكان)، أو عبر الزمان والمكان معًا، وليس انتقالاً آنيًا بالمعنى المعروف ..

ومن هذا المنطلق ، أعادوا التجربة مرة أخرى ، ولكن من منظور مختلف تمامًا ، يناسب الغرض الذى يسعون إليه هذه المرة ..

ولتحقيق الغرض المنشود ، رفعوا درجة حرارة العملة المعدنية هذه المرة ، وقاسوها بمنتهى الدقة ، وبأجهزة حديثة للغاية ، وحسبوا معدلات انخفاضها ، فى وسط مفرغ من الهواء ، ثم بدءوا التجربة ..

وفى البداية ، بدا وكأن شيئًا لم يتغيَّر ..

قطعة العملة اختفت من الناقوس الأوَّل ، ثم عادت إلى الظهور فى الناقوس الثانى ، بعد ساعة وست دقائق بالتحديد ..

ولكن العلماء التقطوا العملة هذه المرة ، وأعادوا قياس درجة حرارتها بنفس الدقة ، ونفس الأجهزة الحديثة للغاية ..

ثم صرخوا مهللين ..

فالانخفاض الذى حدث ، فى درجة حرارة العملة المعدنية الصغيرة ، كان يساوى ، وفقًا للحسابات الدقيقة ، أربع ثوان من الزمن فحسب ..

وهذا يعنى أن فرضيتهم الجديدة صحيحة تمامًا ..

فتلك السنتات الخمسة الأمريكية قد انتقلت ، ليس عبر المكان وحده ، ولكن عبر الزمان أيضًا ..

أو بالمصطلح الجديد ، عبر (الزمكان) ..

فعلى الرغم من أن الزمن الذى سجله العلماء فعليًا ، لانتقال تلك العملة ، من ناقوس إلى آخر ، هو ساعة وست دقائق ، إلا أن زمن الانتقال ، بالنسبة لها هى ، لم يتجاوز الثوانى الأربع ..

انتصار ساحق لنظرية السفر عبر الزمن ..

ولكنه يحتاج إلى زمن طويل آخر ، لوضعه موضع الاعتبار ، أو حتى لوضع قائمة بقواعده ، وشروطه ، وموصفاته ..

فالمشكلة ، التى مازالت تعترض كل شىء ، هى أن تلك النواقيس المفرَّغة مازالت عاجزة عن نقل جسم مركَّب واحد ، مهما بلغت دقته ، أو بلغ صغره ..

لقد حاول العلماء هذا ..

حاولوا ، وحاولوا ، وحاولوا ... وحاولوا ..

وفى كل مرة ، كانت النتائج تأتى مخيِّبة للآمال بشدة ، فالجسم المركَّب ، الذى يتمّ نقله ، تمتزج أجزاؤه ببعضها ، على نحو عشوائى ، يختلف فى كل مرة عن الأخرى ..

ليس كما يمكن أن يحدث ، لو أننا صهرنا كل مكوناته بعضها مع البعض ، ولكنه امتزاج من نوع عجيب ، لايمكن حدوثه فى الطبيعة ، حيث تنوب بعض الجزيئات فى بعضها ، لتمنحنا فى النهاية شيئًا لايمكن وصفه ..

ووفقًا لهذا ، فالسفر عبر الزمن ما زال يحمل تلك الصفة المزدوجة المتناقضة ، التى تثير حيرة الكل بلا استثناء ..

إنه ممكن ومستحيل ، فى آن واحد ..

ممكن جدًا ؛ بدليل أنه يحدث من آن إلى آخر ..

ومستحيل جدًا ؛ لأنه لاتوجد وسيلة واحدة لكشف أسرار وقواعد حدوثه ، فى أى زمن ..

بل ولاتوجد حتى وسيلة للاستفادة منه ..

ولقد كاد الأمر يصيب العلماء بإحباط نهائى ، لولا أن ظهر عبقرى آخر ، فى العصر الحديث ، ليقلب الموازين كلها رأسًا على عقب مرة أخرى ..

إنه (ستيفن هوكنج) ، الفيزيائى العبقرى ، الذى وضع الخالق (عزَّ وجلَّ) قوته كلها فى عقله ، وسلبها من جسده ، الذى أصيب فى حداثته بمرض نادر ، جعل عضلاته كلها تضمر وتنكمش ، حتى لم يعد باستطاعته حتى أن يتحرَّك ، وعلى الرغم من هذا فهو أستاذ للرياضيات بجامعة (كمبردج) البريطانية ، ويشغل المنصب ذاته ، الذى شغله (اسحق نيوتن) ، واضع قوانين الجاذبية الأولى ، منذ ثلاثة قرون .

والعجيب أن (ستيفن هوكنج) قد حدَّد هدفه منذ صباه ، ففى الرابعة عشرة من عمره ، قرَّر أن يصبح عالمًا فيزيائيًا ..

وهذا ما كان ..

ولقد كشف (ستيفن هوكنج) عن وجود أنواع أخرى من الثقوب السوداء، أطلق عليها اسم (الثقوب الأوّلية)، بل وأثبت أن تلك الثقوب تشعّ نوعًا من الحرارة، على الرغم من قوة الجذب الهائلة لها ..

ومع كشوفه المتتالية، التى قوبلت دومًا باستنكار أوّلى، ثم انبهار تال، فتح (هوكنج) شهية العلماء؛ للعودة إلى دراسة احتماليات السفر عبر (الزمكان) الكونى؛ لبلوغ كواكب ومجرات، من المستحيل حتى تخيُّل فكرة الوصول إليها بالتقنيات المعروفة حاليًا ..

وهنا ظهرت إلى الوجود مصطلحات وكشوف جديدة، مثل أنفاق منظومة الفضاء والزمن، والدروب الدوّارة، والنسيج الفضائى، وغيرها، وكل مصطلح منها يحتاج إلى سلسلة من المقالات لوصفه، وشرح، وتفسير أبعاده المعقّدة، وأهميته المدهشة فى عملية السفر عبر الزمان والمكان .. أو (الزمكان) ..

وأصبح ذلك المصطلح يضمّ قائمة من العلماء، إلى

جوار (ألبرت أينشتين)، مثل (كارل شفارتز شيلد)، و(مارتن كروسكال)، و(كيب ثورن)، و(ستيفن هوكنج) نفسه ..

وبالنسبة للمعادلات الرياضية، مازال السفر عبر الزمن ممكنًا، ومازال هناك احتمال لأن يسير الزمن على نحو عكسى، فى مكان ما من الفضاء أو الكون، أو حتى فى بعد آخر، من الأبعاد التى تحدَّث عنها (أينشتين) والآخرون ..

ومازالت هناك عمليات رصد لأجسام مضادة، تسير عكس الزمن، وتجارب علمية معملية، تؤكّد احتمالية حدوث هذا الأمر الخارق للمألوف، تحت ظروف ومواصفات خاصة ودقيقة جدًا ..

ومازال العلماء يجاهدون، ويعملون، ويحاولون .. ولكن يبقى السؤال نفسه، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

هل يمكن أن تتحوّل قصة (آلة الزمن) يومًا ما إلى حقيقة ؟!

وهل يتمكن البشر يومًا من السفر عبر (الزمكان)، إلى الماضى السحيق، أو المستقبل البعيد ؟!

هل ؟!

من يدرى ؟!

ربمـا !

★ ★ ★

تمت بحمد الله

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوّانى
(الحلقة الثامنة)

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مقدِّمة

هذه الخواطر هى سيرة ذاتية ..

وعمل أدبى ..

جزء من هذا ، وشىء من ذاك ..

إنها ذكريات لفترة من فترات حياتى ، ربما كان لها الفضل ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فيما أصبحت عليه الآن ..

فقد بدأت تلك الفترة طبيبًا عاديًا ، من مئات الأطباء ، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية ، وأنهوا فترة التدريب الإجبارى (الامتياز) ، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية ..

وانتهت وأنا أضع قدمىّ على أوّل سلمة فى مشوار طويل ، كان ولا يزال مصدر متعتى الوحيد ..

الأدب .. والقلم ..

والأوراق ..

ولقد تمنيت كثيرًا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات ..

وتردَّدت أكثر فى كتابتها ..

ربما لأننى خشيت ألا يتقبَّل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أى كاتب) بعض الأوراق ، فى الحديث عن نفسه ..

أو لأنه ليس من السهل أن يكتب المرء عن نفسه ..

وحياته ..

وذكرياته ..

ولكن شيئًا ما ، لست أدرى كنهه بالضبط ، جعلنى أحسم تردُّدى هذا .

شىء ما ، جعلنى أعجز عن مقاومة رغبتى فى كتابة هذه المذكرات ..

ربمًا لأنها أحداث مرّت عليها ثمان عشرة سنة أو أكثر ، وخشيت أن تذوب فى بحر الذاكرة ، فتفقدنى وأفقدها ..

أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانًا إلى التحدُّث عن ذكرياته ..

ربما .

المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن ..

اعتبروها مجرَّد عمل أدبى ..

وهذا سيكفينى ..

تمامًا ..

د. نبيل فاروق

* * *

٨ـ فى يوم .. فى سنة ..

من أبرز الفروق ، بين الحياة التى نشأت فيها ، فى بلدتى الصغيرة ، التى تتوسَّط دلتا (مصر) ، والقرية التى عملت فيها كطبيب تكليف ، فى حضن جبال الصعيد الإيقاع ..

فالحياة هنا ، فى حضن الجبل ، تتميَّز ببطء الإيقاع ، إلى الحد الذى يمكن أن يصيبك بالجنون ، فى أيامك الأولى .. والأخيرة أيضًا ..

واختلاف الإيقاع أمر طبيعى ، بين المدينة والقرية ، فالمدينة مع اتساعها ، والنشاط الدائم بها ، واختلاف وسائل التعامل فيها ، تحتاج إلى إيقاع أكثر سرعة ، فى حين تقتصر الأعمال والنشاطات ، وحتى وسائل الاستمتاع فى القرية ، على أمور محدودة للغاية ، بحيث يبدو اليوم أكثر طولاً ، والوقت أكثر وفرة ، مما ينعكس بالطبع على بطء الإيقاع إلى حد ما ..

حاول أن تستنتج إذن اختلاف الإيقاع ، بين مدينة عادية ، وقرية فى حضن الجبل ، فى أعماق الصعيد !!

هل نجحت فى استنتاج هذا ؟!

برافو .. أنت مثلى تمامًا ..

ساذج ، ومتفائل .. وعبيط أيضًا ..

فعندما بدأت عملى ، فى تلك الوحدة الصحية ، فى (أبو دياب شرق) ، تصوَّرت أننى عبقرى ، وأننى سأستوعب بسرعة فارق الإيقاع التقليدى ، بين المدينة والقرية ، باعتبارى متعلمًا ، ومثقفًا ، و ... ، و ....

ولأننى أهَّلت نفسى لهذا ، لم أشعر بضيق كبير ، عندما بدأ المرضى يتوافدون على العيادة ، فى السادسة صباحًا ، على الرغم من أن مواعيد العمل الرسمية ، وحتى غير الرسمية ، تبدأ فى الثامنة ، وأقنعت نفسى بأنهم يرغبون فى الانتهاء من الكشوف الطبية العاجلة ، حتى يتفرَّغوا للزرع والقلع وخلافه ..

ثم بدأت أنتبه إلى أمر عجيب ..

فكلمة حالة عاجلة ، التى نعرفها فى المدن ، لا شأن لها إطلاقًا بالكلمة نفسها ، المعروفة هناك ، فى حضن الجبل ، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن استمرار حالة الإسهال عند طفل صغير ،

لمدة شهر ونصف ، هى حالة عاجلة ، أو أن عملية إخراج شوكة نخيل من ساق صبية ، بعد انغراسها فيها لمدة سنة ، هى حالة طوارئ ، تستلزم السرعة والهلع ..

كل الحالات ، التى كنت أفحصها ، فى السادسة صباحًا ، وقبل شروق الشمس أحيانًا ، كانت مصابة منذ أسبوع على الأقل ، وهذه المدة الأخيرة تعنى أن الفزع قد أصابهم ، فهرعوا بالحالة إلى الطبيب ، بعد أسبوع واحد فحسب ..

أما فى الحالات العادية ، كشج الرأس بالشومة ، أو الإصابة بطلق نارى ، أو تحطّم الأنف ، والفك ، والأسنان ، وغيرها من الأمور اليومية المألوفة هناك ، فالحالة يمكن أن تنتظر عامًا أو عامين ، أو حتى ينتظرون وفاتها للتأكد ، قبل استشارة الطبيب .. ولكننى احتملت هذا أيضًا ، وحاولت إيجاد الأعذار لهم ..

حتى خرجت لأول كشف خارجى ..

فالرجل الذى أتى لاصطحابى ، أجابنى فى بساطة ، عندما سألته عن مكان منزله ، وهو يشير بيده فى هدوء :

ـ خطوتان من هنا .

ولأننى كنت متخلفًا عقليًا فى ذلك الحين ، وأصلح كتمثال للغرّ الساذج ، فقد صدّقته ، واعتبرت أن إشارة يده هذه تعنى أن المنزل قريب بالفعل ، فحملت حقيبة أدواتى ، وتبعته لتوقيع الكشف الطبى ..

وبعد ما يقرب من الكيلومترات الثلاثة ، من السير على الأقدام ، على طريق مترب وعر ، وستة أو سبعة لترات من العرق ، الذى غمرنى فى مساحة محدودة ، لا تتجاوز حجمى كله ، من قمة رأسى حتى أخمص قدمىّ ، سألته مرة أخرى :

ـ أين منزلك يا حاج ؟!

وبنفس البساطة والتناحة (أدامهما اللّه عليه) ، أشار بيده ، مجيبًا :

ـ خطوتان من هنا .

وعندما تجاوزنا الكيلومتر الخامس ، ومع بدء شعورى بالجفاف ، من فرط ما أفرزت من عرق ، ولما بدأ الكالّو يبرز بالفعل ، فى كل أصابع قدمىّ ، راودنى شك فى أننا قد ضللنا الطريق ، وتجاوزنا حدود (أبو دياب شرق) إلى صحراء النقب على الأقل ، فسألت الرجل ، وأنا ألهث فى صعوبة :

ـ أين المنزل يا حاج ؟!

وكدت أحطم أنفه ، وألقيه أرضًا ، وأقفز فوقه صارخًا فى جنون ، عندما أشار بيده ، مجيبًا بنفس التناحة إياها :

ـ خطوتان من هنا .

وكان صادقًا هذه المرة ، فالمنزل لم يكن يبعد ، عن موقعنا الأخير هذا ، سوى كيلومترين فحسب ..

تصوّروا ..

وغنى عن الذكر أننى ، وعندما وصلنا إلى منزله ، كنت فى حاجة إلى أسطوانة أكسجين ، وخزان مياه ، وسيارة

إسعاف ، تنقلنى إلى حجرة العناية المركّزة ، فى أقرب مستشفى فى (كوالا لمبور) ، التى تصوّرت أننا قد وصلنا إليها حتمًا ، بعد كل هذا السير على الأقدام ..

وبعد أن قام والده بتوقيع الكشف الطبى علىّ ، أقصد بعد أن قمت أنا بتوقيع الكشف الطبى عليه ، شعرت بانهيار مسبق ؛ لأننى سأضطر إلى قطع طريق العودة مرة أخرى ..

ولكننى تعلّمت الدرس ..

ففى الكشوف الخارجية التالية ، كنت أصرّ على إحضار وسيلة ركوب ..

وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة ـ طبعًا ـ هى (اسم اللّه على مقامك) الحمار ..

نعم .. الحمار ، ذلك الحيوان المكافح الصبور ، الذى تمتطيه ، فيسير بك مستسلمًا ، تحت القيظ ، وفوق الرمال ، وهو صامت مستسلم ، دون أن يشكو أو يعترض ..

لأنه حمار ..

ولكم أن تتخيّلوا مظهرى ، بكل رصانتى ووقارى ، وأنا أمتطى حمارًا ، وإلى جوارى يسير صاحب الحالة ..

مشهد كنت أراه فى أفلام قديمة كثيرة ، ولكننى لم أتصوّر قط أننى سأمر بنفس الموقف .. وبالأبيض والأسود أيضًا ..

المؤسف أننى لم أسع أيامها لالتقاط صورة واحدة لى، فى هذا الوضع الطريف، حتى يراها أحفادى فيما بعد، عندما أروى لهم كيف كان الدولار أيامها بجنيه واحد، والبيضة بقرش صاغ، فيسألنى أحدهم فى براءة :

- يعنى إيه جنيه يا جدو ؟!

ولكن ما علينا .. المهم أننى انتبهت أيامها إلى حقيقة مهمة جدًا، فالإيقاع البطىء هناك كان ينعكس على كل شىء ..

حتى الزمن والمقاييس ..

فبالنسبة لهم، كانت الساعة أشبه بالدقيقة، وما يمكنك أن تنجزه فى يوم، يستغرق سنة، بالتمام والكمال، باعتبار أنه لايوجد أدنى داع للعجلة، فاليوم طويل، ولو أنجزت كل أمورك بسرعة، فما الذى ستفعله فى باقى اليوم ؟!

ثم إنه هناك ذلك المثل الذهبى، الذى نتبناه كلنا تقريبًا ..

لماذا نعمل أكثر، ما دام من الممكن أن نعمل أقل ؟!

أما بالنسبة للمسافات، فحدِّث ولاحرج، إذ إنك، لو راجعت خريطة (مصر)، ستجد أن كل محافظات وجه بحرى محصورة فى الربع الأول، وأن المسافات بينها محدودة إلى حد ما، أما محافظات الصعيد، فهى تمتدّ بطول وادى النيل، عبر الأرباع الثلاثة الأخرى ..

لذا فالمسافات هناك شاسعة للغاية، وهذا ما اعتاده الكل، بحيث أصبحت المسافات، التى نعتبرها كبيرة فى وجه بحرى، هى مسافات بسيطة، بالنسبة لوجه قبلى ..

وعندما نحصل على تأشيرة السفر إلى الصعيد، لابد أن نعتاد فارق التوقيت وفارق المسافات أيضًا ..

وعندما بدأت تعاملاتى هناك، وقبل الحصول على الجنسية، جذبت انتباهى كلمتان، لم أستطع فهم مغاهما أو مضمونهما، إلا بعد حين .

كلمة (هبابة)، التى فهمت فيما بعد أنها تعنى الشىء الصغير، سواء أكان هذا الشىء وقتًا أم مسافة، أم كمية ..

أما الكلمة الثانية، فهى كلمة (هنية) ..

تأكّد أنه لاتوجد أية أخطاء مطبعية ..

الكلمة هى (هنية) بالفعل ..

وعلى الرغم من أننى قد فهمت مضمون هذه الكلمة، إلا أننى لم أفهم معناها أبدًا ..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور ..

فالكلمة تستخدم لوصف كل شىء ..

وأى شىء ..

تمامًا مثل كلمة (Voila) الفرنسية ، التى يستخدمها الفرنسيون عمّال على بطّال ، إذ تسأل الواحد منهم عن مكان ما ، فيشير إليه وهو ينطقها ، وتحدثّه فى موضوع علم ، فيقلب كفيه ويقولها ، وكلما تحدثّت مع أى فرنسى ، كان لابد أن تسمعها ألف مرة ، بألف معنى مختلف ..

وهذا بالضبط ما يفعله الصعايدة ، مع كلمة (هنية) هذه ..

تسأل الواحد منهم عن أى شىء ، فتسمع الكلمة مائة مرة فى الصفيحة ..

أو فى الدقيقة ..

أو أحيانًا فى العضم ..

وربما كانت أقرب إلى كلمتنا العامية ، التى نصف بها أى شىء .. (البتاعة دى) ..

والإخوة الصعايدة يرددون كلمة (هنية) هذه ألف مرة ، ثم يضحكون من أعمق أعماقهم ، عندما يسمعون من أحد البحاروة كلمة (كده) ..

فالكلمة غير مألوفة عندهم ، وغير مستخدمة على الإطلاق ..

وطبيعى أن تشعر أنت بالغيظ ، وعندما تنطقها فيسخرون منك ، فى حين أن نصف كلامهم غير مفهوم أو مألوف بالنسبة لك ..

وهناك أمور عديدة غير مألوفة بين الطرفين ، البحاروة والصعايدة ..

ولكن من المدهش أن ينطبق هذا على الطعام ايضًا .

فذات يوم ، كنت أجوّل فى حديقة تخصّ الشيخ (إبراهيم) ، الذى أقيمت الوحدة الصحية على أرضه ، فشاهدت كرمة عنب جميلة ، كانت أوراقها كبيرة نضرة ، حتى إننى تساءلت عما إذا كان من الممكن أن أحصل على بعض أوراق العنب ..

وفى دهشة بالغة ، سألنى الشيخ (إبراهيم) عن سبب رغبتى فى الحصول على أوراق العنب ، ثم تساءل أحد الموجودين عما إذا كنا نربى بعض الماشية فى منزلى ، فأجبتهم ببساطة وتلقائية ، أننى أرغب فى الحصول على أوراق العنب ؛ لأننا نصنع منها نوعًا من الطعام (محشى ورق عنب) ..

وهنا ، فوجئت بالكل ينفجر ضاحكًا ، وبعضهم يمسك بطنه ، أو ينقلب على قفاه ، كما لو أننى قد أخبرتهم بأحدث نكتة عن الصعايدة ..

وعندما تساءلت عن سبب هذا الانفجار العجيب ، أجابنى أحدهم ، من وسط دموعه وضحكاته ، أنه لا أحد يأكل أوراق العنب ، سوى البهائم والمواشى ..

شوف الذوق واللباقة !

ولأننى أعرف عن الإخوة الصعايدة رقة الحسّ، وسرعة الفهم، وعبقرية الاستيعاب، فقد تجاوزت هذه النقطة بسرعة، قبل أن أفقد أعصابى، وأقتل أحدهم رميًا بالبلغ ..

ولكن كان من الطبيعى أن أنفجر غيظًا، بعد أسبوع واحد، عندما دعانى الشيخ (إبراهيم) نفسه، مع نفس شلة الأنس، لتناول الطعام، ووجدت بينه (محشى ورق خس)، ثم تلاه شربات الخلّ ..

لحظتها عرفت أن العملية كلها خل ..

ولكننى لم أتعلّم بشكل كاف ..

فبعد أسبوع واحد، من موقعة (ورق العنب)، كنت أستعد لقضاء الإجازة فى بلدتى، وأضع خطة للاستمتاع بتلك الإجازات الطويلة (ستة أيام كل شهرين)، عندما جاء أحد الإخوة لزيارتى، واستنكر قيامى بحجز تذكرة فى القطار الفاخر، ثم أخبرنى أنه سيسافر بالفعل إلى (القاهرة)، فى نفس توقيت سفره، ثم دعانى للركوب فى سيارته، وأقسم بالطلاق أن أفعل ..

ولأننى ـ مرة أخرى ـ ساذج، وعبيط، ومتخلّف عقليًا،

فقد وافقت، باعتبار أن السفر بالسيارة سيوفّر الكثير من الوقت، الذى يتوقّف فيه القطار، لإفساح الطريق أمام القطارات القادمة فى الاتجاه العكسى، على الخط المنفرد ـ حينذاك ..

ولم أحجز تذكرة القطار بالطبع ..

وجاء يوم السفر، وصل الرجل فى موعده بالضبط، مع سيارته (البيجو) الكبيرة، التى تتسع لسبعة ركاب، من الناحية الرسمية ..

وبكل الحماسة، وضع الرجل حقائبى على شبكة السيارة، وربطها فى إحكام، ثم دعانى للجلوس إلى جواره، وانطلق بنا ..

وتصوّرت أنا أننا سننطلق إلى (القاهرة) مباشرة، ولكنه أخبرنى أن اثنين من أولاد عمومته ينتظروننا فى مدينة (دشنا)؛ ليصحبونا فى رحلتنا هذه ..

ولم أعترض بالطبع، فالرجل، والحال هكذا، يعتبر قرينًا لـ (حاتم الطائى)، فى المروءة والكرم ..

ثم وصلنا إلى (قنا) ..

وهناك، كشفت أن بطء الإيقاع قد انعكس لديهم على

الأرقام أيضًا ، فأولاد عمومته هؤلاء كانوا جيشًا من الصعايدة ، هجم على السيارة فور وصولنا ، وانتشر داخلها ، ووجدت أحدهم يدفعنى لألتصق بالسائق ، ثم دخل مع اثنين آخرين ، إلى المقعد الأمامى ، فى حين انحشر ما يقرب من العشرين ، فى المقاعد الخلفية الأخرى .. كل هذا وصاحب السيارة يبتسم ، ويوزّع عبارات الترحاب على أفراد الجيش ، ومع كل عبارة سيجارة ..

وقبل أن أقفز من السيارة ، فى محاولة للنجاة بحياتى ، انطلق هو بنا ، إلى طريق (القاهرة) ..

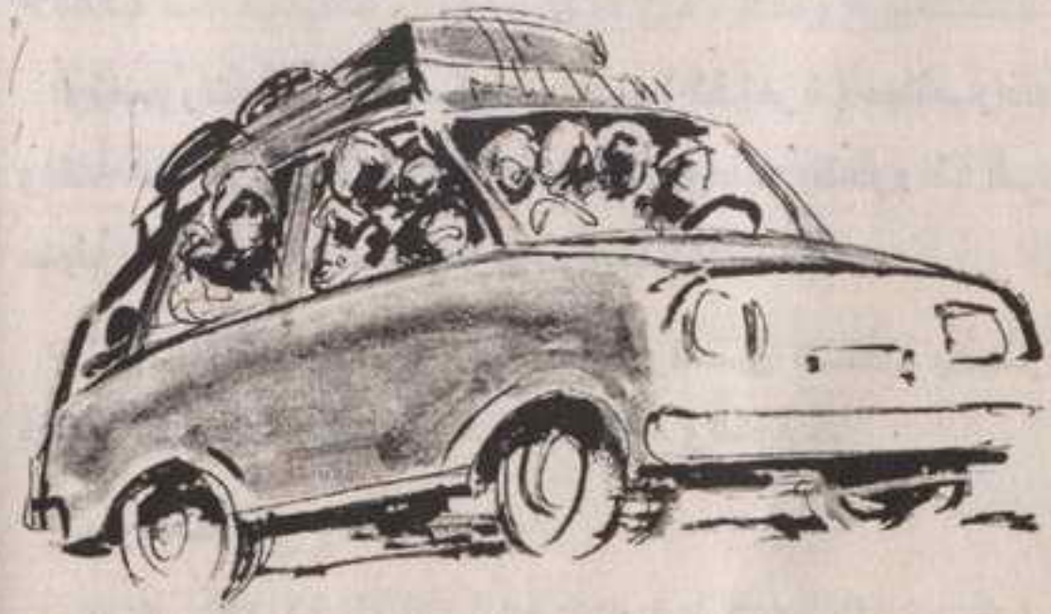

وباستماتة ، رحت أقاتل ، وأقاتل ، وأقاتل ..

فقط لألتقط أنفاسى ..

وبصوت متحشرج ، أشبه بصوت رجل يحتضر ، سألت صاحب السيارة ، عما إذا كان ركوب هذا الجيش فى السيارة قانونيًا ، فأطلق ضحكة عالية ، وأكّد لى أن سيارته تحمل أرقامًا خاصة ؛ لأنها ليست سيارة أجرة ؛ لذا فهو يستطيع أن يحشر فيها أى عدد يشاء ..

وغامت الدنيا أمام عينى ، وأخ صعيدى رقيق (حوالى مائة وخمسون كيلوجرامًا) ، يستقرّ على صدرى ، وآخر يضع مرفقه فى عينى ، وثالث يسعل فى قفاى ، ورابع يتحدّث بصوت أجش غليظ ، داخل أذنى مباشرة ..

هذا وقد تصوّرت أن الشرطة قد ضبطت ما يحدث ، وأنها قد ألقت بعض قنابل الدخان داخل السيارة ؛ لتفريق جيش الصعايدة ، وميليشياتهم المسلّحة ، إلا أننى أدركت بعدها ، أن سحب الضباب هذه هى دخان سجائرهم ، التى تشتعل طوال الوقت بلا انقطاع ، ممتزجًا بغازات أخرى ، لاداعى لذكر مصدرها هنا ..

وحاولت أن أحتمل ..

وحاولت ..

وحاولت ..

وعندما انهارت مقاومتى ، سألت سائق السيارة بأنفاس متقطّعة :

ـ هل تبقّى الكثير ؟!

قهقة الكل ضاحكين ، وأجابنى أحدهم :

ـ إننا لم نغادر محافظة (قنا) بعد .

ولن أشرح لكم شعورى لحظتها ..

كل ما أذكره الآن ، هو أننى قد حاولت الاحتمال ، باعتبار أن الوقت سيمضى ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وأنه لا أحد يموت من السفر ..

ولكنى مع وصولنا إلى حدود محافظة (سوهاج) ، تغيَّرت أفكارى تمامًا ..

فالمرء يمكن أن يموت من السفر ..

ألف مرة ..

وفى عقلى ، حاولت أن أبحث عن تلك الفوائد السبعة ، التى يربطونها فى الأمثال بالسفر ، ولكننى لم أجد ـ فى وضعى هذا ـ ولو فائدة واحدة منها ..

وأخيرًا ، وبعدما بدا لى الوقت أشبه بالدهر ، توقَّفت السيارة فى (سوهاج) ، وخرج منها جيش الصعايدة ، لشرب الشيشة ، وتناول بعض الطعام ، وكأنما لم يكفهم كل ما أراقوه من دخان ، خلال رحلة السفر السابقة ..

وفى (سوهاج) ، رحت أرسم خطة للفرار ، متخليًا عن حقائبى ، وملابسى ، وأى شىء آخر ، وعندما بدأت فى تنفيذ الخطة ، فوجئت بهم يدفعوننى مرة أخرى إلى السيارة ؛ لنواصل السفر ..

وتكرَّر هذا ، فى عاصمة كل محافظة نبلغها ..

وعلى عكس ما تصوَّرت ، استغرقت الرحلة بالسيارة ، ما يزيد على رحلة القطار المعتاد ، وإن بدا لى هذا أشبه بدهر كامل ، حتى إننى ، وعندما وصلنا أخيرًا إلى (القاهرة) ، أدركت شعور المغترب ، الذى يتمنى تقبيل أرض الوطن ، عند الوصول إليه ..

ولكن اليوم كان مطيـرًا ، وأرض الوطن كانت موحلـة ، مما جعلنى أؤجّل عملية التقبيل هذه إلى مناسبة أخرى ..

أو إلى شىء آخر ، بخلاف أرض الوطن ..

واهو كله تقبيل .

★ ★ ★

البقية فى الكتاب القادم بإذن الله

وماذا بعد ..

(دعـــوة)

(إسرائيل) فقدت أعصابها أخيرًا ..

كانت تتصوّر أنها (جالوت) الجبـار ، الذى يواجـه (داوود) الصغير الضئيل ، والذى يمكنه أن يسحقه بضربة واحدة ..

ولكنها نسيت أن تكمل القصة حتى نهايتها ..

نسيت أن التاريخ (العبرى) يقول : إن (داوود) الصغير لـم يرهب (جالـوت) العمـلاق ، على الرغم من فـارق الحجم

والقوة بينهما ، وإنما صمد أمامه ، والتقط حصاة صغيرة من أرضه ، وضعها فى مقلاعه ، وأدار المقلاع فى قوة ، ثم صوَّبه فى إحكام إلى عين (جالوت) .

وأطلق الحصاة ..

ولأن (داوود) ثابت ، متماسك الأعصاب ، يؤمن بحقه فى أرضه ، وفى عدالة قضيته ، فقد أحسن التصويب ، واخترقت حصاته الصغيرة عين (جالوت) ، ومنها إلى مخه ..

وسقط العملاق ..

هوى كالحجر مهزومًا مدحورًا ، تحت قدمى الصغير (داوود) ..

هذه القصة تبناها كل يهود الأرض يومًا ، عندما بدأت حربهم مع العرب ، وراحوا ينشرونها فى العالم كله ، باعتبار أن العرب هم العملاق (جالوت) ، واليهود هم الصغير (داوود) الذى سيهزم العرب بحصاته ؛ لأنه قوى الأعصاب ، متماسك ، لايرهق نفسه ومشاعره بهتافات عصبية ، وشحب متتال ، وغضب طائش غير مدروس ..

ثم مرَّت الأيام ، وتبدَّلت الأدوار ..

(إسرائيل) ، التى احتلَّت (فلسطين) ، وهى تبكى مستضعفة ، مدعية أنها تحمى نفسها من العرب الأشرار ، استقرَّ بها المقام ، وبدأت تفرد قامتها ، وتتعامل باعتبارها الدولة الأكثر قوة فى المنطقة ، وتنظر إلى الفلسطينيين باعتبارهم مجرَّد حفنة ضعيفة ، لايمكنها أن تتصدَّى لها ، بأى حال من الأحوال ..

لقد اعتبرت إذن أنها هى التى أصبحت (جالوت) العملاق ، فى حين صار الفلسطينيون هم (داوود) الضئيل الصغير ..

ودون أن تدرى أو تدرك ، أن تبديل الأدوار يعنى تبديل النتائج أيضًا ، راحت (إسرائيل) ، المحتلة الاستعمارية الوحيدة على وجه الأرض ، فى القرن الحادى والعشرين ، تتعامل بكل الصلف والغطرسة والعنف ، محاولة إخماد المشاعر والعقائد والانتماءات بالقوة والقهر ..

ولكنها فوجئت برد الفعل ..

فوجئت بأن (داوود) الصغير قد عاد يلتقط حصاته من الأرض ، ويقذف بها عدوه ..

سيل من أحجار الغضب والرفض ، انهال على رءوس المحتلين ، وقلوبهم ، وعقولهم ، وسمعتهم ، وكيانهم كله ..

وراح العملاق الزائف يواجه تلك الأحجار بالرصاص ، والقنابل ، والدبابات ، وحتى أحدث المقاتلات القاذفة ..

ولكن الانتفاضة لم تنته ..

ولم تنهزم ..

ولم تستسلم ..

وضاعف الإسرائيليون من غضبهم ..

ومن عنفهم ..

وهنا ، ظهر سلاح جديد على ساحة المعركة ..

القنابل البشرية ..

شهداء أبطال ، رأوا ما يفعله بهم العدو ، من انتهاك لكل الأعراف والقوانين والحرمات ، ورأوا دباباته وجراراته وجرافاته ، تسحق كل الأخضر واليابس ، ورئيس وزرائه يتحدّى فى صفاقة ووقاحة ، ووحشية سادية عجيبة ، مع مقت شديد غير مبرَّر للعرب ، فهبّوا ..

هبّوا للشهادة ، دفاعًا عن كل ما يؤمنون به ..

وفى قلب العدو وعقله ، دوت الانفجارات ..

شهيد وراء شهيد نسفوا أنفسهم فى أعمق أعماق العدو ، الذى جنّ جنونه .. وفقد أعصابه ..

وانطلق كأشرس أشرس الوحوش ، التى لم يعرفها التاريخ قط..

انطلق بكل قوته ، وجيوشه ، وعدته ، وعتاده ، وغضبه ، وشراسته ، ووحشيته ، وجنونه ، وساديته ..

وضاربًا بكل القيم والأعراف عرض الحائط ، وراح المحتل يحاصر الكنائس ، والمساجد ، ويضرب ويقتل رجال الدين ، ويحرق ويهين دور العبادة ..

وغضب العالم كله مما يحدث ..

فيما عدا (أمريكا) بالطبع ..

(أمريكا) ، القطب الأوحد ، والبلطجى الأعظم ، وراعية أكبر دولة إرهابية فى الوجود ، وقفت بكل قوتها وغطرستها وثرواتها ، خلف المحتلّ الغاصب ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد تواصل الصمود ..

وتواصلت المقاومة ..

وبدا من الواضح أن القوة المسلّحة لن تحسم القضية أبدًا ..

وأن الكفاح ، والصمود ، والمقاومة ، والإيمان باللّه (سبحانه وتعالى) أشياء تولد ..

ولكنها لا تموت ..

أبدًا ..

ولكن العدو لن يتوقّف عن اعتداءاته ، ووحشيته ، وكراهيته لنا جميعًا ، باختلاف عقائدنا وأدياننا ..

والسؤال هو ماذا بعد ؟!

ماذا بعد كل ما حدث ، ويحدث ، وسيحدث ؟!

والجواب هو الصمود ..

والمقاومة ..

وبعقل ..

التاريخ علمنا أن من يفقد أعصابه وعقله وحكمته ، هو من يخسر المعركة حتمًا فى النهاية ..

وهم فقدوا أعصابهم ..

فلنتملكها نحن إذن ..

دعونا نرفض ما تفعله (إسرائيل) ، وراعيتها (أمريكا) ، بمنتهى الشدة ..

ومنتهى العقل ..

وعلى المدى الطويل ..

فما دامت (أمريكا) ، هى راعية (إسرائيل) ، وممولّها الأوّل ، فلنفسد هذا التمويل إذن ..

والاقتصاد الأمريكى ، الذى يعتمد أكثر ما يعتمد ، على التجارة الخارجية ، لا يمكنه أن يحتمل فترة تدهور طويلة ..

ولو عانى الاقتصاد الأمريكى ، سيصبح تمويلها للإرهابية (إسرائيل) أمرًا عسيرًا .. إن لم يصبح مستحيلاً ..

ولأننا ـ نحن العرب ـ أحد كبار الممولين للاقتصاد الأمريكى بطريق غير مباشر ، بإقبالنا على المنتجات الأمريكية ، فمن المؤكّد أن امتناعنا عن شرائها ، وعزوفنا عنها ، سيؤدى حتمًا إلى حدوث خلل فى الميزان الاقتصادى الأمريكى ، على نحو غير مسبوق ..

ولكننا ينبغى أن نفرّق هنا بين أمرين بالغى الأهمية ..

وشديدى الاختلاف ..

أن نفرّق بين منتج عربى ، يحمل اسمًا أمريكيًا شهيرًا ، وآخر مستورد ، أمريكى الصنع ..

فالمنتج الذى يتم تصنيعه هنا ، فى وطننا العربى ، برأس مال عربى ، وعمالة عربية ، واستثمارات عربية ، وضرائب للخزائن العربية ، ومنتج عربى بالدرجة الأولى ، حتى ولو راحت نسبة منه إلى صاحب الاسم الأمريكى ..

المنتج العربى يعنى نمو للاقتصاد العربى ، وتشغيل للعمالة العربية ، وحل لمشكلة البطالة ، ووسيلة لزيادة الدخل القومى ، وأشياء عديدة نحتاج إليها ، فى مرحلة النمو ، التى لن يمكننا الصمود والتصدّى بدونها ..

أما المنتج المستورد من (أمريكا) ، فكل قرش تدفعه فيه ، هو نمو للاقتصاد الأمريكى ، وضعف للاستثمارات العربية ..

دعونا إذن نتوقّف عن التعامل كالمقاتل الأعمى ، الذى يقتل أفراد أسرته ، وقوات جيشه ، لمجرّد أن أصواتهم تشبه أصوات العدو ..

عدونا ذكى ، خبيث ، مخادع ، يدير اللعبة فى معظم الأحيان ، بحيث يدفعنا إلى تدمير أنفسنا بأنفسنا ..

فلنثبت له إذن أننا لم نعد حمقى أو أغبياء ..

ولنلعب اللعبة بنفس الذكاء ..

ونفس الخبث ..

لن تغرينا لمحة ذئبية ، على أن نترك مرماتا بلاحماية ، ونهاجم على نحو عشوائى ، فيلتقط هو الكرة ، ويشن علينا هجمة مرتدّة ، يحرز بها أهدافه ..

إننى أدعوكم ، ومنذ لحظة قراءتكم لهذه السطور ، إلى مقاطعة كل منتج أمريكى (مستورد) ..

قاطعوا كل مايحمل شعار (صنع فى أمريكا) ، من قطعة الشيكولاتة الصغيرة ، وحتى السيارات الضخمة الفاخرة ..

أثبتوا لهم أننا نستطيع العيش بدونهم ..

والانتصار بدونهم أيضًا ..

وهذا ما أثبته التاريخ ..

وستثبته الأيام ..

بإذن اللّه .

★ ★ ★

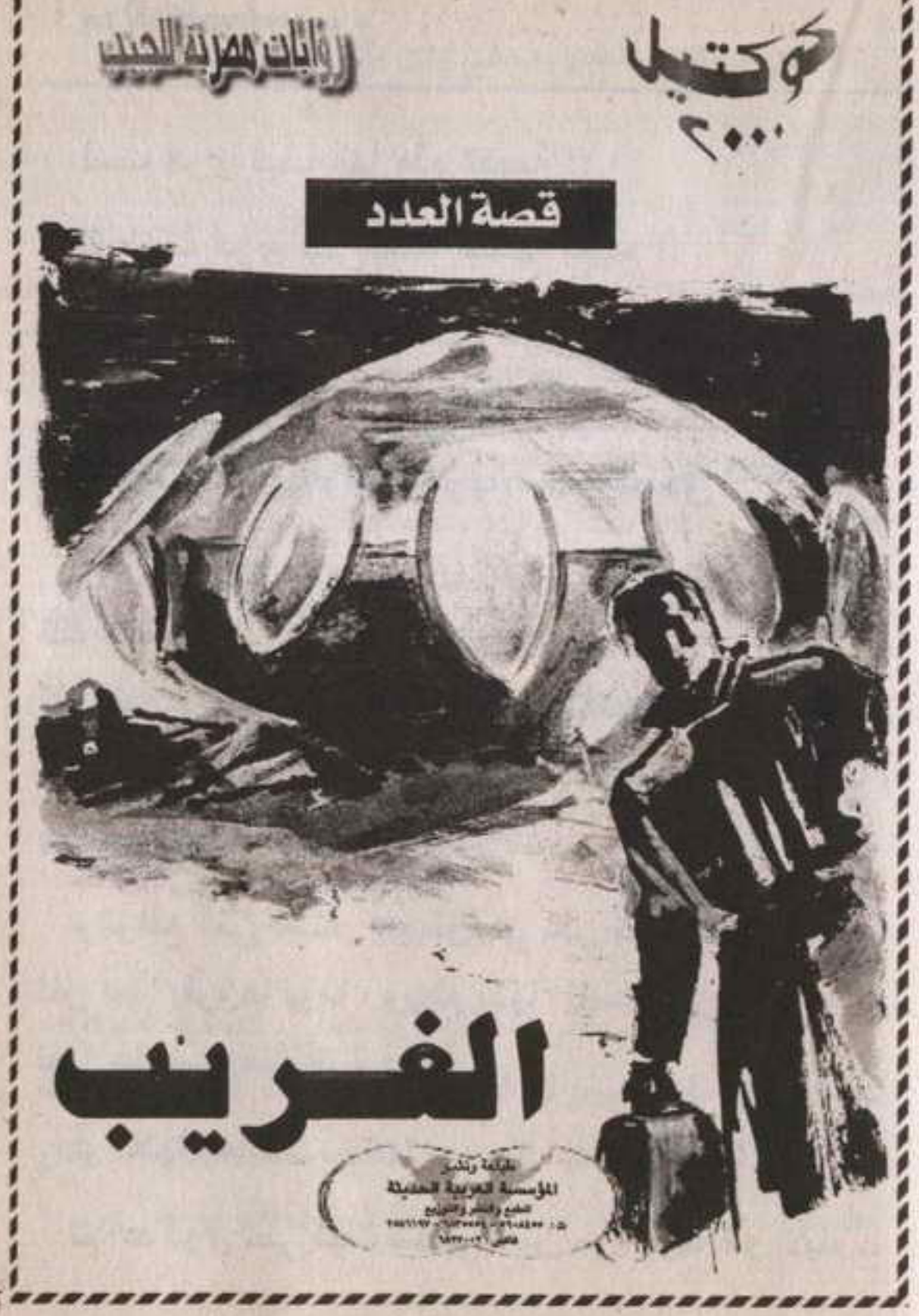

١ ـ قصـــتى ..

لست أدرى كيف أبدأ هذه القصة !!

بل لست أدرى حتى لماذا أقصها عليكم !!

فمن المؤكّد أنكم لن تصدقوا حرفًا واحدًا مما سأكتب !

أنا نفسى ، لم أكن لأصدّق قصة كهذه ، حتى ولو قصّها علىّ أقرب الناس ، وأشهرهم بالأمانة والصدق ..

ولكن ليس بيدى سوى أن أكتبها ، لعلّ هذا يخفّف من تلك الحمم الملتهبة ، التى تسرى فى عروقى ، وتكاد تلتهم كل خلية فى جسدى ، وكل ذرة من تفكيرى وكيانى ، الذى لا أدرى ما إذا كان سيظلّ على تماسكه ، أم سينهار تمامًا ، بين لحظة وأخرى ..

والواقع أننى أشعر بمسئوليتى عن كتابة هذه القصة ، لعل أحدًا يقرؤها يومًا ، ويعلم منها تفسير ما بدا للجميع لغزًا غامضًا ، منذ فترة قريبة ..

أو لعلها بعيدة ..

لم أعد أدرى حتى كيف يمضى الزمن ، ولا كيف تمر الأيام ..

كل شىء يبدو متشابهًا ، على نحو يكاد يصيبنى بالجنون ..

كل شىء ..

آه .. يبدو أننى قد أسرفت فى تقديم الأمر ، حتى كدت أصيبكم بالملل ..

أو لعلنى فعلت ، دون أن أدرى أو أقصد ..

اعذرونى إذن ، فلو أنكم فى موضعى ، لما كانت لديكم القدرة على كتابة سطر واحد ، مما سأكتبه لكم ..

لو أمهلنى العمر ..

وخشية ألا يمهلنى ، دعونا نبدأ على الفور ..

دعونى أقصّ عليكم القصة من بدايتها ..

قصتى ..

* * *

منذ اللحظة الأولى ، التى تسلّمت فيها عملى ، كضابط الشرطة ، المسئول عن نقطة صغيرة ، فى إحدى محافظات الصعيد ، أدركت أننى قد انتقلت إلى دنيا أخرى ، تختلف تمام الاختلاف عن العاصمة ، التى وُلِدت ، ونشأت ، وعشت فيها طوال عمرى ..

فحيث نشأت ، كان من العسير أن تعرف كل سكان شارعك ، أو منطقتك ، بل وليس من السهل حتى أن تربطك صداقة قوية ، بكل سكان البناية التى تقطنها ، حتى إنه هناك ساكن أو اثنان ، اعتدت رؤيتهما طوال عمرى ، دون أن أعرف مهنتهما بالتحديد ، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

أما هنا ، فالوضع مختلف تمامًا ..

كل الناس تعرف كل الناس ، وكل شخص يعرف كل العائلات ، صغيرها قبل كبيرها ، بغض النظر عن طبيعة العلاقة ، بينه وبينها ..

ومع وصولى إلى نقطة الشرطة ، وربما قبل أن أصل إليها فعليًا ، كان كل مخلوق ، فى المنطقة المحيطة بها ، يعلم بالأمر ، ويعرف اسمى كاملاً أيضًا ..

لذا ، كان من الطبيعى أن تنهال علىَّ الدعوات ، من عمد القرى التابعة للنقطة ، وأعيانها ، وكبار مزارعيها ، لتناول الغداء ، والعشاء ، حتى الإفطار فى بعض الأحيان ..

ولكننى تشبَّثت بشدة ، بنصيحة وجَّهها لى والدى ـ لواء الشرطة السابق ـ قبل أن أنتقل فعليًا إلى الصعيد ..

لاينبغى أن أقبل دعوة أى مخلوق ، مادمت ضابطًا للشرطة ، ينبغى أن يتعامل مع القانون وحده ، وأن يكون الكل أمامه سواسية ..

ومن هذا المنطلق ، كنت شديد الحزم ، فى عدم قبول أية دعوة ، مؤكدًا لكل من يسعى إلى ذلك ، أن بإمكانه دعوتى كما يشاء ، عندما يتم نقلى إلى مكان آخر ..

وفى حماسة ، راح الكل يؤكد لى أنه لا علاقة لوظيفتى أو مهنتى بتلك الدعوات ، باعتبار أن التقاليد العريقة ، فى صعيد (مصر) ، تحتم دعوة أى غريب لتناول الطعام ، فى بيوت العمد والأعيان ، كنوع من التعبير عن كرم الضيافة ، وحسن الاستضافة ..

والواقع أن هذا صحيح تمامًا ، ففى الصعيد يقدرون كثيرًا الغرباء ، ويسعون لاستضافتهم ، بكرم طبيعى ، وسخاء يحسدون عليها ..

ثم إن التعامل مع الغريب له قواعد خاصة وصارمة للغاية ، فلايجوز أبدًا إيذاؤه ، بالقول أو الفعل ، أو توجيه التهديدات إليه ، أو رفع السلاح فى وجهه ..

حتى ولو كانت الحرب مشتعلة بين العائلات ..

حرب الثأر ، التى لم تنجح أية وسيلة ، اجتماعية ، أو سياسية ، أو حتى أمنية ، فى وقف الاتجاه إليها قط ..

فعندما تشتعل الأمور ، بين عائلتين أو أكثر ، يصبح السير فى الطرقات غير آمن ، بأى حال من الأحوال ؛ نظرًا لانتشار بعض القنّاصة العشوائيين ، فوق أسطح المنازل ، أو وسط حقول القصب ..

إلا بالنسبة للغريب ..

فالغريب ، أى غريب ، يمكنه أن يجوّل فى طرقات القرى ، فى ذروة اشتعال الحرب ، دون أن يمسّه مخلوق واحد بسوء ..

وكل من يصطحب الغريب ، يتمتّع بالحماية نفسها ..

فمن الممكن جدًا أن يستضيف أحد أبناء العائلات المتحاربة غريبًا ، ثم يخرج معه ، بعد انتهاء الزيارة ، ليوصله إلى حيث يشاء ، وهو آمن مطمئن ، فالقواعد الصارمة ، التى لايتمّ تجاوزها قط ، تحتم عدم المساس به ، وهو يسير إلى جوار غريب ، بل وحتى يعود مرة أخرى إلى منزله ، ولكن ما إن يغلق بابه خلفه ، حتى ينتهى الحظر ، ويعود مرة أخرى إلى خانة الأعداء ..

قواعد عجيبة ..

وقوية ..

وفى البداية ، لم أكن أعرف الكثير عن تلك القواعد ، إلا أنه لم يمض شهران فحسب ، حتى صرت عليمًا بكل قواعد التعامل فى الصعيد ، بل وأصبحت أعرف كل سكان المنطقة تقريبًا ، وأستطيع تمييز بعضهم عن بعض ، من خلال ثيابهم ، أو ملامحهم ، أو أسلوب حديثهم ..

واعتدت أيضًا أسلوبهم المستفز ، فى التعامل مع جرائم القتل ..

ولقد ذكرت جرائم القتل وحدها ؛ لأن باقى الجرائم نادرة الحدوث هناك ، أو أننا ، بتعبير أدق ، لم نكن نعلم عنها إلا النزر اليسير ..

فالسرقات مثلاً تتم معالجتها داخليًا ، وحوادث الاعتداءات يقومون بتصفيتها فيما بينهم ، على عكس المدن ، التى يلجأ فيها الكل للشرطة وحدها ..

والواقع أننى بدأت أيامها أشعر بشىء من الإعجاب والارتياح ، تجاه هذا الأسلوب القبلى الحازم الحاسم الصارم ، وهذه التقاليد العريقة ، التى يحافظ عليها الكل بإصرار قوى ، يحيط كل شىء بنظام دقيق ، سواء اتفقنا معه أو رفضناه ..

وربما تبدو لكم هذه المقدّمة طويلة بعض الشيء ، ولكنّها مهمة جدًا ؛ لفهم ما سيأتى بعدها من أحداث ..

فكما أخبرتكم ، منذ بضعة أسطر ، كانت الجرائم التى نتعامل معها ، على نحو عام ، هى جرائم القتل ، وحوادث الموت وحدها ..

وفى البداية ، كنت أتعامل مع هذا الأمر بحزم صارم ، فأذهب لمعاينة موقع الحادث ، أو مسرح الجريمة ، وأصطحب معى الطبيب الشرعى للمنطقة ، والذى كان يشاركنى اهتمامى الشديد ، حتى إنه لم يكن يشكو قط ، وهو يقضى ليلة كاملة ، فى قلب الجبل ، أو حضن الجبل ، كما يصفونه ، ليضع تقريرًا مفصلاً دقيقًا ، حول رجل أصابه عدد هائل من الرصاصات ، حتى بدا أشبه بالمصفاة ..

وعندما كنت أبدأ التحقيقات حول الجريمة ، كنت أغضب وأثور بشدة ؛ لعجزى عن الحصول على أية معلومات ، من أى مخلوق ، على الرغم من أن الجريمة قد تمّت وسط سوق القرية مثلاً ، أو فى أكثر ساحاتها ازدحامًا ..

هذا لأننى لم أكن قد فهمت عقلية أبناء الصعيد بعد ..

إنهم ، وبكل صراحة ، لا يثقون بالشرطة ، أو القانون ، أو حتى القضاء ..

لا يثقون إلا بأنفسهم فقط ..

فالقانون ، من وجهة نظرهم ، لن يحقّق لهم العدل الذى ينشدونه ، إذا ما عاقب القاتل بالأشغال الشاقة المؤقتة ، أو حتى المؤبّدة ؛ فهم لا يؤمنون إلا بقاعدة واحدة حازمة فى هذا الشأن ..

من قتل يُقتَلْ ..

لذا ، فهم لا يمنحون القانون أية معلومات ، خشية أن تؤدّى إلى إلقاء القبض على القاتل ، الذى ينوون أن يقتصّوا منه بأنفسهم ..

الحالة الوحيدة ، التى يمكنك أن تحصل فيها على معلومات ، هى حالة الموت بأحد الحوادث القدرية ..

ولقد اعتدت هذا بسرعة ، فلم أعد أشعر بالحماسة ، وإنما بالكثير من الملل ، كلما بدأت التحقيقات الرسمية ، الخاصة بأية جريمة ؛ لثقتى بأن هذا لن يؤدّى إلى أى شيء ، مهما قلت أو فعلت ..

والمدهش أن زميلى الطبيب الشرعى الشاب ، لم يبلغ هذه المرحلة أبدًا ..

كان يشعر دومًا بالحماسة والاهتمام البالغ ، وهو يؤدى عمله ، فى أية حادثة أو جريمة ، بغض النظر عن النتائج ..

أما أنا ، فقد أصبحت المعلومات هى الدليل الأكيد بالنسبة لى ، على أن ما أمامنا مجرَّد حادث ، وليس جريمة قتل ، ففى الحالة الأولى سيخبرك الكل بما تريد معرفته ، وفى الحالة الثانية ، لن تحصل على حرف واحد ..

وفى تلك الليلة ، التى بدأت فيها الأحداث ، تلقيت بلاغًا بوقوع حادث عنيف ، فى منطقة قريبة من نقطة الشرطة ، وأكد البلاغ أن عمدة القرية ينتظرنى فى موقع الحادث ، وأن الطبيب الشرعى الدكتور (فياض) فى طريقه إلى هناك ، فارتديت زى العمل الرسمى ، واستقللت سيارة الشرطة إلى هناك ..

ولقد كان حادثًا عنيفًا بالفعل ..

واحدة من عربات القطار ، الذى يتولىَ نقل قصب السكر ، من حقول المزارعين ، إلى المصنع فى (نجع حمادى) ، انقلبت فوق رجل ، لم يتم تحديد هويته بعد ..

وكنت أعلم أن الأمر سيستغرق الليل كله على الأقل ؛ لرفع عربة القطار ، وإعادتها إلى القضبان ، واستخراج جثة القتيل ، وكتابة تقرير الطب الشرعى الكامل ..

ولقد بدأت أشعر بالإرهاق والملل ، قبل حتى أن نصل إلى موقع الحادث ..

وعندما وصلت بنا سيارة الشرطة إلى هناك ؛ كان الكل يقوم بعمله بالفعل ..

ثلاث سيارات كبيرة ، مع جيش من الرجال ، من أبناء القرية ، كانوا يتعاونون ؛ لرفع عربة القطار المقلوبة ، وإعادتها إلى القضبان ..

العمدة وشيخ الخفر ، وفريق من الخفراء كانوا يحيطون بالمكان ، ويتحركون فى توتر ملحوظ ، لم ألمحه قط ، فى جرائم القتل السابقة ..

الدكتور (فياض) ، الطبيب الشرعى الشاب ، كان يدرس موقع الحادث بدقة ، ويدوِّن بعض التفاصيل فى دفتر ملاحظاته ، على الرغم من أن هذه مهمة الشرطة ، وليست مهمته .. وفى اهتمام ، راح الكل يتحدَّث ، فى وقت واحد تقريبًا ، ليصفوا كيف أن حجرًا صغيرًا ، على قضيب قطار القصب ، قد أدَى إلى انقلاب إحدى عرباته ، فى نفس اللحظة التى كان يمرَ فيها غريب ، و ....

وتوقَّفت أنا عند كلمة غريب هذه ..

فالقرية التى وقع فيها الحادث ، واحدة من القرى العميقة ،

فى أحضان الجبل ، والتى لاتمرّ بها أية طرقات عامة ، بل يقود إليها طريق ترابى واحد ، يزيد طوله على العشرين كيلومترًا ..

وفى قرية كهذه ، من المستحيل أن تجد غريبًا ، مـالم يكن ضيفًا على أحد سكانها ..

وما أدهشنى حقًا ، هو أن أحدًا لم يستطع معرفة هوية ذلك الغريب ، الذى راح ضحية حادث قطار القصب أبدًا ..

خمسة رجال على الأقل ، شاهدوا عربة القطار تنقلب فوقه ..

ولكن لا أحد عرف من هو ..

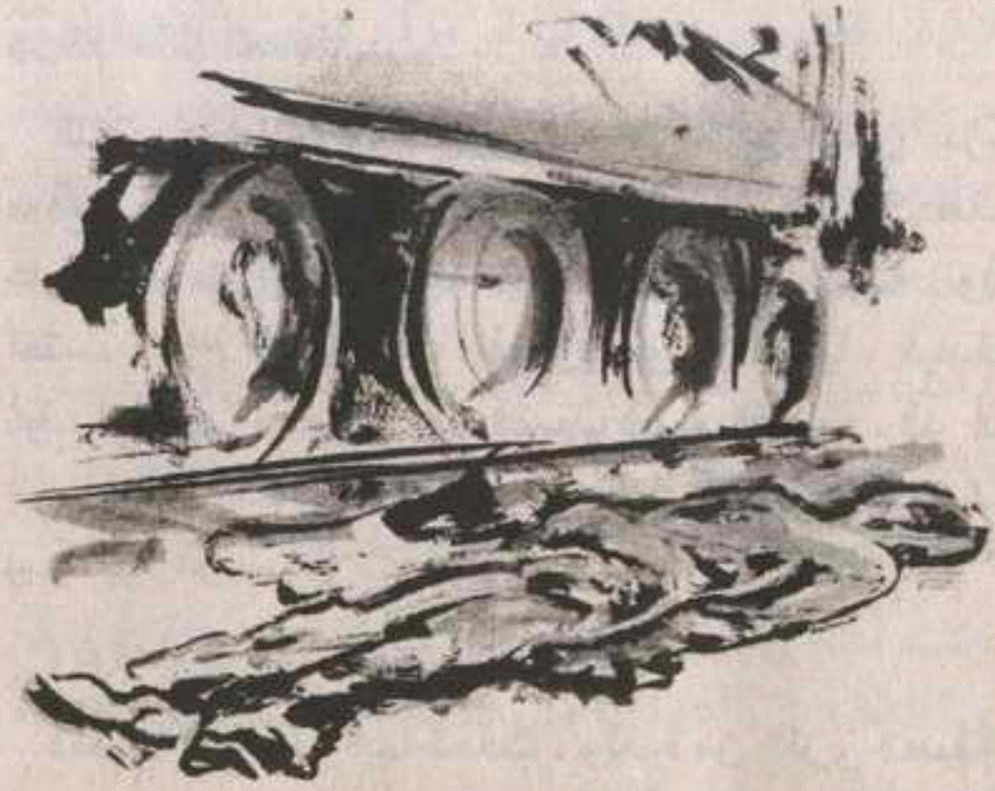

وكان هذا أمرًا عجيبًا للغاية ، فى قرية كهذه ، خاصة وأن الشهود الخمسة قد أجمعوا على أنـه كان يسير وحده ، حاملاً حقيبة صغيرة ..

غريب يسير وحده ، فى قرية من قرى حضن الجبل ، على مسافة تزيد على الكيلومترين ، عن الطرق الرئيسية فيها ، دون أن يعرف مخلوق واحد هويته ..

وفى أثناء محاولات رفع العربة المقلوبة ، وإعادتها إلى قضبانها ، رحت أجرى بعض التحريات والاستجوابات ، فى محاولة لتحديد هوية ذلك الغريب ..

ولكن هذا لم يزد الأمر إلا غموضًا ..

فذلك الغريب لم يكن ضيفًا على أحد سكان القرية ، أو حتى أحد زوارها الرسميين ، بل إن سيارة واحدة ، من السيارات التى تنقل الركاب من وإلى القرية ، لم تحمله إلى هذا المكان أبدًا ..

وبدأت أعصابى تتوتّر بشدة ، مع كل ما يحيط بالموقف من غموض ، ويبدو أن هذا التوتر كان واضحًا على ملامحى ، فقد أتانى الدكتور (فياض) مبتسمًا ، وهو يربّت على كتفى ، قائلاً :

ـ اهدأ يا (أحمد) .. ما هى إلا دقائق ، ويتمّ رفع العربة ، ونجد مع الجثة أية أوراق ، يمكن أن تكشف هويتها .

حاولت السيطرة على أعصابى ، وأنا أقول :

ـ فليكن .. سأنتظر ..

كان على حق تمامًا ، فى الجزء الأوّل من قوله ، إذ لم تمض دقائق قليلة ، حتى نجح الرجال مع العتاد ، فى رفع العربة ، وإعادتها إلى قضبان قطار القصب ، وأصبحت جثة ذلك الغريب واضحة أمامنا ..

ولكن فى مشهد بشع ..

بشع إلى أقصى حد ..

فالعربة الثقيلة سقطت على ذلك الغريب ، فدكّته فى الأرض دكًا ، وضغطته على نحو لم أره فى حياتى قط ، بحيث كان ملقى على جانبه ، وسمك جسده كله لا يتجاوز العشرين سنتيمترًا ..

تمامًا كذلك المشهد الهزلى ، الذى نراه فى أفلام الرسوم المتحركة ..

والعجيب أنه لم تكن هناك نقطة دماء واحدة ..

وعلى الرغم من حالة الهلع التى أصابتنى ، وأنا أحدّق

فى هذا المشهد ، الذى أراه لأوّل مرة ، مع كل ما رأيت من حوادث وجرائم قتل عنيفة ، بدا الدكتور (فياض) هادئًا متماسكًا ، وهو يفحص جثة ذلك الغريب ، بنفس الحماسة والاهتمام ..

ومع حماسه ، تغلّبت على هلعى وتوترى ، ورحت أتأمّل الجثة ، محاولاً أن أستشفّ منها هوية صاحبها ..

كان يبدو كرجل عادى ، لم يمكننى تحديد عمره ، مع حالته الرهيبة هذه ، ولكنه يرتدى معطفًا من الجلد ، له لون غير معتاد ، هو مزيج من الأزرق والأسود ، ويوحى بالثراء على نحو ما ، أما حذاؤه ، فقد جذب انتباهى واهتمامى بشدة ، إذا بدا أشبه بالأحذية الرياضية ، على نحو يتناقض مع المعطف ، كما أن لونه الفضى الزاهى ، لم يكن يتناسب قط ، مع التواجد فى مكان كهذا ..

ولسبب ما ، لم أدر سببه لحظتها ، راودنى شعور مبهم بالخوف ، وأنا أتطلّع إلى الجثة ، التى انتهى الدكتور (فياض) من فحصها ، ثم راح يفتش جيوب ثيابها ، قبل أن يعتدل ، مغمغمًا فى دهشة :

ـ عجبًا !

اندفعت أسأله فى عصبية :

ـ ماذا هناك ؟!

لبضع لحظات ، تصوَّرت أنه لم يسمع سؤالى ، وهو يحدِّق فى تلك الجثة لبضع لحظات ، قبل أن يلتفت إلىَّ بعينين حائرتين ، مغمغمًا :

ـ ثيابه !

امتزج توتر بما اكتسبه من حيرته ، وأنا أسأله :

ـ ماذا عنها ؟!

قلب كفيه فى حيرة أكثر ، قائلاً :

ـ لم أر شيئًا مثلها قط .

تردَّدت لحظة ، قبل أن أتجه إليه ، وأنحنى لفحص ثياب الغريب ..

ولقد كان على حق فى حيرته هذه ، فثياب ذلك الغريب لم تكن تشبه بالفعل ، أى نوع من الثياب عرفته ، فى حياتى كلها ..

كانت أشبه بأردية رجال الإطفاء ، ذات لون فضى ، ومكوَّنة كلها من قطعة واحدة ، تبدأ من الرقبة ، وحتى القدمين ..

والعجيب أن ذلك الحذاء الرياضى ، كان قطعة منها ، لايمكن فصله عنها ، على نحو لم أعهده فى أية ثياب أخرى ..

ثم إن المادة المصنوعة منها أيضًا كانت عجيبة ، تبدو أقرب إلى البلاستيك ، منها إلى القماش ..

وفى حيرة مماثلة ، غمغمت :

ـ ما هذا بالضبط ..

قلب الدكتور (فياض) كفيه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، ليضيف بمنتهى الحزم :

ـ ولكننا سنفحصه جيدًا ، بعد تشريح الجثة .

قالها ، ثم اعتدل ، وراح يلقى أوامره لمعاونيه ؛ لنقل جثة ذلك الغريب الغامض إلى سيارة الإسعاف ، ثم لم يلبث أن التفت إلىَّ ، ووجد فى نفسه القدرة على الابتسامة ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. الطب الشرعى قادر على صنع المعجزات .

غـادر المكـان مـع سيارة الإسـعاف ، وبقيت أنـا بعـض الوقت ؛ لإنجاز مـا ينبغى إنجازه ، ثم لـم ألبث أن عـدت بسيارة الشرطة إلى الاسـتراحة الملحقـة بالنقطـة ، وذهنـى مشغول بالتفكير فى ذلـك الغريب ، وفى كل ما يحيط به مـن ملابسات ، و ....

وفجأة تذكَّرتها ..

تذكَّرت تلـك الحقيبـة الصغيرة ، التـى شـوهدت فـى يـد الغريب قبل الحادث ، والتى أكَّد الشهود جميعهم رؤيتها ..

أين ذهبـت ؟!

أين اختفت ؟!

إننى لم ألمحها فى موقع الحـادث ، ولـم يذكرهـا محضر الفحص ..

بل ولم يشر مخلوق واحد إلى العثور عليها ، فـى موقـع الحادث ..

فأين ذهبت ؟!

أين ؟!

التهب عقلى بالتساؤل ، على نحو عجيب ، كمـا لو أننـى واثـق مـن أن تلـك الحقيبـة الصغيرة ، تحـوى كـل أسـرار الدنيـا ، ولـم أكـد أبلـغ الاسـتراحة ، حتـى أسـرعت إلـى الهـاتف ، وطلبـت رقـم مكتـب الدكتـور (فيـاض) ، ومـا إن سمعت صوته ، حتى سألته بكل اللهفة :

ـ هل عثرتم على حقيبة الغريب ؟!

سألنى فى حيرة :

ـ أية حقيبة ؟!

هتفت به ، فى عصبية زائدة :

ـ الحقيبة التى جاءت فى أقوال الشـهود ، والتـى لـم ألمحهـا فى موقع الحادث ، ولم يتم العثور عليها .

أجابنى فى سرعة :

ـ أو أن أحدًا قد عثر عليها ، وقرَّر الاحتفـاظ بهـا ، أمـلاً فى أن يعثر داخلها على بعض النقود أو النفائس .

لم أدر لماذا بدا لى الاحتمال الأخير هـو الأكثر منطقيـة ، فهتفت فى غضب :

ـ لو أن أحدهم فعل هذا ، فأقسم أن ....

قبل أن أتمّ عبارتى ، فوجئت بصوت يقول فى هدوء ، لا يخلو من حزم عميق :

ـ أأنت الضابط المسئول هنا ؟!

وبحركة غريزية ، انتفض جسدى كله ، وأنا أستدير بحدة إلى مصدر الصوت ، وأحدّق فى صاحبه ، بكل توتر الدنيا ..

فهناك ، وعند باب الاستراحة المغلق ، كان يقف غريب ..

آخر ..

★ ★ ★

٢ ـ الآخـــر ..

« من أنت ؟! وكيف دخلت إلى هنا ؟! »

انطلق الهتاف من حلقى ، بكل ما اعتمل فى نفسى من انفعال ، وأنا أتساءل بحق ، كيف دخل ذلك الغريب استراحتى ، دون أن أشعر بهذا ؟!

وفى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها هتافى ، كانت عيناى تتطلعان فى حيرة متوترة ، إلى الباب المغلق خلفه ، وقد راودنى شعور بأننى أقف أمام شبح ، وليس أمام بشرى حقيقى ، من لحم ودم !!

ولكن الغريب ظلّ هادئًا ، بقامته المديدة ، وبنيانه المتين ، وذلك المعطف الأسود الطويل ، الذى يغطى جسمه كله تقريبًا ، وملامحه القوية الوسيمة ، وعينيه العميقتين ، اللتين تطلعتا إلى عينىّ مباشرة وهو يقول فى هدوء ، لا يخلو من الحزم والصرامة :

ـ أنا رجل أمن مثلك .

ردّدت بتوتر :

ـ رجل أمن ؟!

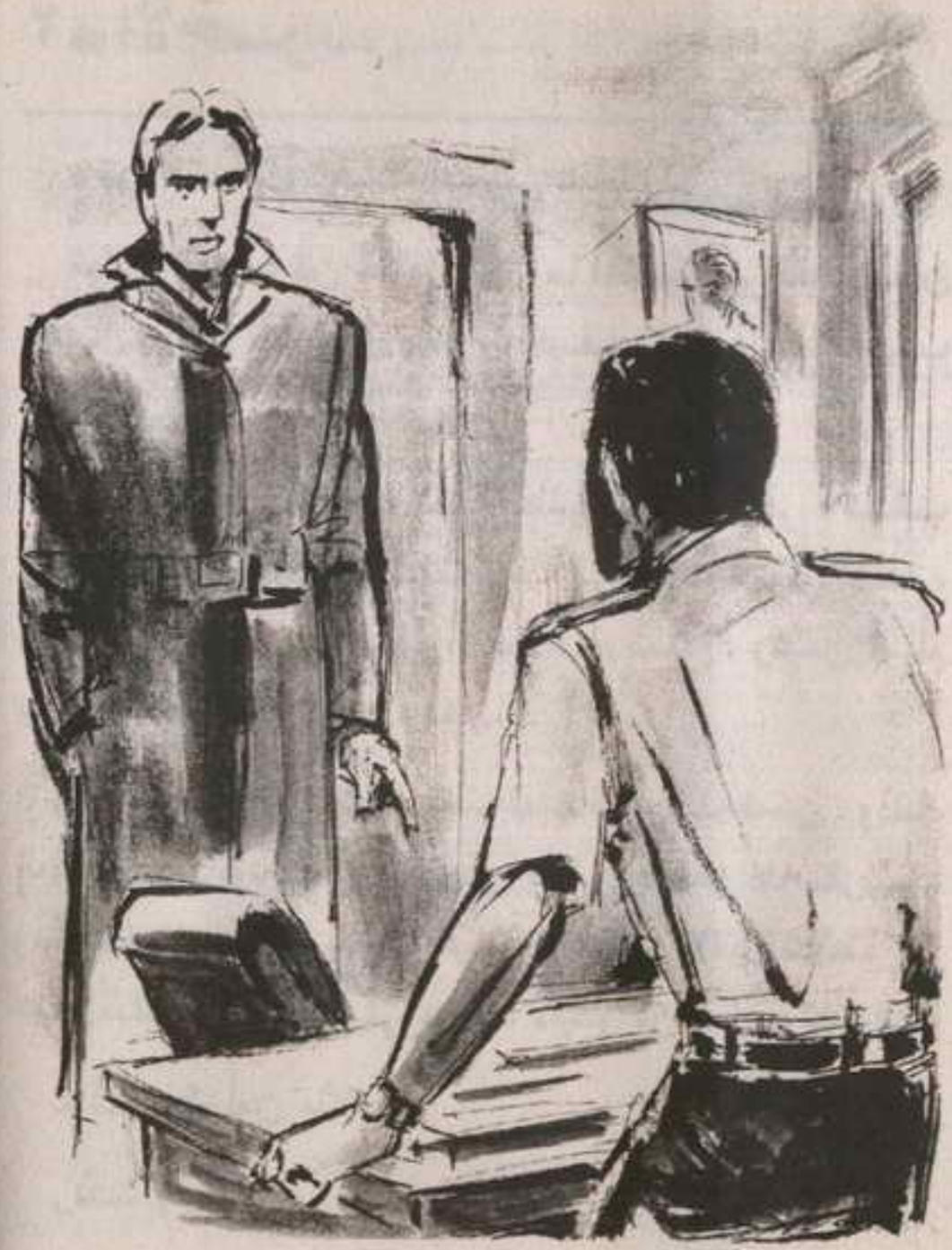

أضاف بنفس اللهجة :

ـ ولكن من مستوى أعلى .

ضاقت عيناى بشدة ، وأنا أحاول فهم مايعنيه ، بأنه رجل أمن من مستوى أعلى .. وفى ذهنى ، دارت عشرات الخواطر ..

أهو أحد رجال مباحث أمن الدولة مثلاً ؟!

أم هو رجل مخابرات ؟!

أم ماذا ؟!

حاولت التماسك ، على الرغم من ذلك التوتر العنيف ، الذى سرى فى كيانى ، وأنا أقول ، متظاهرًا بالصرامة :

ـ هل يمكننى رؤية ما يثبت هويتك ؟!

تجاهل قولى تمامًا ، وهو يتقدَّم نحوى ، قائلاً :

ـ هل توصَّلت إلى شىء ، بشأن حادث الليلة ؟!

كان ينبغى أن أصرّ على مطالعة هويته ، إلا أن شيئًا ما فى أسلوبه ، أو ملامحه القوية ، أو لهجته الآمرة الصارمة ، التى توحى بأنه رجل لم يعتد مخالفة أوامره ، جعلنى أجيب فى توتر :

ـ إنه مجرَّد حادث .

بدت عيناه أكثر عمقًا ، وهو يكرِّر ، فى صرامة أكثر :

ـ هل توصَّلت إلى شىء ؟!

لست أدرى لماذا شعرت بالخوف ، من عينيه العميقتين ، حتى إننى أشحت بوجهى ، مجيبًا :

ـ انقلاب عربة القطار حدث دون تخطيط ، ومن سوء حظ القتيل أنه كان هناك ، فى المكان غير المناسب ، والوقت غير المناسب ، لذا فقد سحقته العربة سحقًا ، و ...

قاطعنى فجأة :

ـ وماذا عن الحقيبة ؟!

فوجئت بسؤاله هذا ، فانعقد حاجباى فى شدة ، وأنا أسأله فى عصبية :

ـ من أنت بالضبط ؟!

مال نحوى أكثر ، حتى خُيِّل إلىَّ أن عينيه ستبتلعان كيانى كله ، وهو يكرِّر ، فى صرامة رهيبة :

ـ ماذا عن الحقيبة ؟!

كنت أرغب فى التمرُّد على أسلوبه هذا ، وفى الصراخ فى وجهه ؛ كمحاولة لاستعادة سيطرتى على أعصابى ، وإثبات قوة شخصيتى ، كما تعلَّمت فى أكاديمية الشرطة ، ولكننى فوجئت بنفسى أجيب فى استسلام :

ـ لم نعثر عليها ؟

سألنى بسرعة :

ـ وأين ذهبت إذن ؟!

أجبت بنفس الاستسلام ، الذى أفهمه فى نفسى قط :

ـ ربما سرقها أحدهم .

انعقد حاجباه مع قولى هذا ، وخُيِّل إلىَّ أن نيران الغضب قد اشتعلت ، فى عينيه العميقتين ، وهو يتراجع فى بطء ، حتى اعتدل واقفًا ، ليبدو أمامى كالعملاق ، وهو يسأل :

ـ وأين الجثة ؟!

غمغمت :

ـ الدكتور (فياض) يقوم بفحصها الآن ، و ....

قاطعنى فى صرامة شديدة :

ـ مره ألا يفعل .

حدّقت فى وجهه بدهشة مستنكرة ، وأنا أهتف :

ـ لماذا ؟! أليس من المعتاد أن ....

قاطعنى مرة أخرى ، فى صرامة أكثر :

ـ أهو من كنت تتحدَّث إليه هاتفيًا ، لحظة وصولى ؟!

انتبهت ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى أننى لم أنه حديثى مع الدكتور (فياض) بعد ، وأننى مازلت أمسك سمّاعة الهاتف ، فرفعتها بسرعة إلى أذنى ، هاتفًا :

ـ دكتور (فياض) .. أأنت ...

قاطعنى صوت الطبيب الشرعى الشاب ، وهو يهمس فى انفعال :

ـ أنا هنا .. لقد سمعت كل شىء .

تطلَّعت إلى الغريب ، الذى ضاقت عيناه بشدة ، وهو يراقبنى فى اهتمام ، فازدردت لعابى فى صعوبة ، وقلت :

ـ لست أدرى لماذا تهتم السلطات بحادث بسيط كهذا ، ولكن يبدو أنهم لايريدون فحص الجثة أو الـ ...

قاطعنى الدكتور (فياض) ، بنفس الهمس المنفعل :

ـ اسمعنى جيدًا يا (أحمد) .. لست أعتقد أن للأمر علاقة بأية سلطة رسمية فى (مصر) .

لم يكن باستطاعتى التجاوب معه ، فى وجود ذلك الغريب ، لذا فقد اكتفيت بالإنصات له ، وهو يتابع :

ـ ذلك القتيل ليس شخصًا عاديًا بالتأكيد .. لقد أعدت فحص ثيابه ، وهى لاتشبه أية ثياب نعرفها هنا .. ربما تتصوَّر أننى أمتلك خيالاً جامحًا ، ولكن الأمر يتجاوز حدود أية سلطات رسمية ، فى (مصر) كلها .

كان الغريب يتابعنى بنظرة فاحصة صارمة ، من عينيه العميقتين ، مما جعلنى أغمغم ، فى حذر متوتر :

ـ هل بدأت عملية الفحص بالفعل ؟!

التقط الدكتور (فياض) مادفعته إليه فى سرعة ، وهمس فى انفعال شديد :

ـ نعم .. أخبره أننى قد فعلت ، وحاول تعطيله بقدر الإمكان ، وسأعمل أنا على فحص الأمر بسرعة ، و ....

قبل أن يتمّ عبارته ، تحرَّك ذلك الغريب فجأة ، وضغط زر الهاتف بسبَّابته ، لينهى الاتصال على نحو مباغت ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سنذهب إليه .

مرة أخرى أردت أن أرفض ، وأن أصرخ فى وجهه ، ولكـن قوة ما سيطرت على كياتى كله ، وجعلتنى أقول فى تخاذل :

ـ المسافة من هنا للمدينة بعيدة ، و ....

قاطعنى فى حزم :

ـ سنذهب بسيارتى .. إنها أكثر قوة وسرعة .

لم أدر ماذا أصابنى ، وأنا أتبعه كالمسحور ، أو كشخص مسلوب الإرادة ، دون أن أحـاول الاستعانة بأحد الجنـود ، أو طاقم الحراسة ..

والعجيب أننى لم ألمح أحدًا منهم حـول نقطـة الشرطة ، أو حتى فى الجـوار ، وذلك الغريب يقودنى إلى سيارته ، التـى بدت فخمة وحديثة الطراز ، على نحو غير مألوف ، فى الناحيـة كلهـا ، وخاصة من الداخل ، حيث حمل التابلوه الخاص بها عشرات الأزرار ، والشاشات الصغيرة ، والأدوات الحديثة ، التى لم أر مثيلاً لها ، حتى فى أفخم أندية وأماكن العاصمة نفسها ..

وفى حزم ، جلس الغريب خلف عجلة قيادة سيارته ، وأنا أجلس على المقعد المجاور له ، صامتًا مستسلمًا ، حتى سمعته يقول :

ـ اربط حزام الأمان .

لم أدر سر اهتمامه بأمر كهذا ، فى مكان معزول ، ولكننـى أطعته بنفس الاستسلام ، و ...

وانطلقت السيارة ..

ومع انطلاقها ، سرت فى جسدى قشعريرة باردة ، واتسعت عيناى عن آخرهما ، فى دهشة وتوتر بلاحدود ..

فعلى الرغم مـن وعورة الطـرق النسبية ، فى المنطقـة المحيطـة بنقطـة الشرطـة ، كانت تلك السيارة تنطلق ، فـى نعومة وسرعة مدهشتين ، وعلى نحو لم أشعر بمثله ، فـى حياتى كلها ، كما لو أنها لاتمس الأرض على الإطلاق ..

وفى ساعة كهذه ، كان من الطبيعى ألا نلتقى بأية سيارات أخرى ..

ولكن الرحلة ، من نقطة الشرطة ، وحتى مكتب الدكتور (فياض) ، استغرقت ربع الوقت ، الذى تستغرقه سيارة الشرطة فى المعتاد ..

وهذا ما أدهشنى بشدة ..

وما أذهل الدكتور (فياض) ، عندما رآنا ندلف إليه ، فى قاعة التشريح ، بعد ربع ساعة فحسب ، من انقطاع اتصالى به ، وقبل حتى أن يبدأ فى نزع ذلك الثوب العجيب ، عن جسد قتيل حادث قطار القصب ..

وبذلك الذهول ، حدّق الدكتور (فياض) فى ذلك الغريب الآخر ، قبل أن يهتف :

ـ ولكن كيف ..

قبل أن يتمّ سؤاله ، قاطعه ذلك الغريب ، وهو يقول فى حزم :

ـ من الواضح أنك لم تبدأ بعد .

هتف به الدكتور (فياض) بكل توتر الدنيا :

ـ من أنت بالضبط ؟!

أجابه الغريب فى هدوء صارم ، وهو يزيحه عن طريقه فى حزم :

ـ أتعشّم ألا تكون قد كتبت أية تقارير رسمية عن الأمر .

قالها ، واتحنى يفحص جثة القتيل ، فى اهتمام تجاوز كل الحدود ، فازدرد الدكتور (فياض) لعابه فى صعوبة ، وهتف به :

ـ ماذا تريد منا ؟!

تجاهله الغريب تمامًا ، وهو يخرج من جيبه أداة رفيعة ، مرَّرها على وجه القتيل المضغوط ، فقال الدكتور (فياض) فى حدة ، وهو يندفع نحوه :

ـ هذا غير مسموح هنا .

استدار إليه الغريب بحركة حادة ، فارتطم الدكتور (فياض) بعينيه العميقتين الصارمتين ، على نحو جعل جسمه كله ينتفض فى عنف ملحوظ ، قبل أن يتراجع فى شىء من الذعر ، متسائلاً فى تخاذل لم يدهشنى :

ـ ما الذى تسعى إليه بالضبط ؟!

تجاهله الغريب تمامًا ، وهو يغرس آلته الرفيعة فى عنق القتيل ، ثم يديرها فى دقة ، قبل أن ينتزعها ، ويعيدها مرة أخرى إلى جيبه ..

وبعدها ، وفى هدوء عجيب ، وأمام عيوننا ، أنا والدكتور (فياض) ، ودون أدنى اعتراض أو تدخل منا ، راح ينزع عن القتيل ثيابه العجيبة ..

ولم أدر لماذا وقفنا نتطلّع إليه ، بكل هذا التخاذل والاستسلام ؟!

لقد كنا كالمنومين مغنطيسيًا ، أو كالمسحورين .. نشاهد ونراقب ونعترض ، ولكن دون أن ننبس ببنت شفة ، أو نتحرك قيد أنملة ..

ونزع الغريب ثياب القتيل ، فى عناية فائقة ، وطواها عدة مرات ، حتى أصابنا الذهول ، وهى تنطوى على بعضها ، حتى أصبحت فى حجم حافظة صغيرة ..

حتى الحذاء انطوى ، واختفى داخل طيات الثياب ، التى وضعها الغريب فى جيب معطفه ، ثم وقف يتأمّل الجثة بضع لحظات ، قبل أن يلتفت إلينا ، قائلاً :

ـ هذا كل شىء .

لم يكد ينطقها ، حتى خُيّل إلينا أننا قد تحرّرنا بغتة ، من قيد ثقيل ، فهتف الدكتور (فياض) فى عصبية بالغة :

ـ ما الذى فعلته بالضبط ؟!

أجابه الغريب فى صرامة :

ـ لاشأن لك بهذا .

صاح فيه الدكتور (فياض) :

ـ ما الذى تعنيه بأنه لاشأن لى بهذا ؟! إننى مسئول عن جثة هذا الرجل ، أو أيًا كانت ماهيته ، منذ وصولها إلى هنا !

أشار الغريب بيده إلى الجثة ، قائلاً فى هدوء :

ـ وها هى ذى أمامك .. افعل بها ما تشاء ..

صاح الدكتور (فياض) :

ـ وماذا عن الثياب ؟!

انعقد حاجبا الغريب فى صرامة شرسة ، وهو يجيب :

ـ لا شأن لك بالثياب .

صاح الدكتور (فياض) ، على نحو لم أعهده فيه من قبل :

ـ أى قول أحمق هذا .. هل تظننى أجهل لماذا فعلت هذا ؟!

تراقصت ضحكة ساخرة ، فى عينى الغريب العميقتين ، وهو يعتدل فى وقفته ، لتبدو قامته المديدة القوية ، ويعقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً :

ـ ولماذا فعلت هذا ؟!

أجابه الدكتور (فياض) فى تحد :

ـ لتخفي الدليل .

سأله الغريب فى هدوء :

ـ الدليل على ماذا ؟!

التقط الدكتور (فياض) نفسًا عميقًا ، بكل توتر الدنيا ، قبل أن يجيب ، فى تحد وعصبية أكثر :

ـ الدليل على أنه ، وربما أنت أيضًا ، لستما من عالمنا .

انتفض جسدى فى عنف ، مع عبارة الدكتور (فياض) ، وحدّقت فيه بدهشة ، هى أقرب إلى الذهول ، قبل أن أنقل بصرى بحركة حادة ، إلى ذلك الغريب ، الذى ظلّ هادئًا للغاية ، على الرغم من اختفاء النظرة الساخرة من عينيه العميقتين ، وهو يقول :

ـ خيالك جامح للغاية .

هتف به الدكتور (فياض) :

ـ بالتأكيد .. جامح إلى درجة كشف الحقيقة ، التى تصوَّرتم أن عقولنا لن تدركها قط .

لثوان ، بدا لى أن المشهد كله قد تجمَّد ، وأنا أنقل بصرى بينهما فى ذهول ، قبل أن أهتف فى توتر :

ـ خيال .. عالم آخر .. حقيقة ؟! أى قول هذا يادكتور (فياض) .. هل تعتقد أن ....

قاطعنى الغريب ، قبل أن أكمل عبارتى ، وهو يقول ، فى لهجة حملت قدرًا ملحوظًا من السخرية :

ـ الدكتور (فياض) يتصوَّر أننى وصاحب هذه الجثة ، مخلوقان من عالم آخر ، حضرنا إلى هنا بطبق طائر ؛ لنجرى بعض الأبحاث ، أو لنحصل على عينات بشرية وحيوانية ، يمكننا دراستها على كوكبنا .

ثم مال نحو الدكتور (فياض) ، مكملاً بكل السخرية :

ـ أليس كذلك ؟!

انتفض جسد الدكتور (فياض) ، وهو يهتف فى عناد :

ـ ولِمَ لا ؟!

هتفت أنا مستنكرًا :

ـ دكتور (فياض) .

التفتَ إلىَّ الطبيب الشرعى الشاب ، هاتفًا فى حدة :

ـ لاتجعل سخريته الوهمية هذه تخدعك ، وسل نفسك : لمـاذا أتى إلى هنـا بهـذه السرعـة ، لينزع ثيـاب الجثـة ، ويمنعنا من فحصـها .. ثم ما تلك الأداة التى حقنهـا بهـا ، وما تـأثير ما حقنها به ؟!

اعتدل الغريب مرة أخرى ، وقال :

ـ ها هى ذى الجثـة أمامك .. افحصـها كما تشاء ، ولن تجد فيها أية اختلافات ، عن البشر العاديين .

هتف الدكتور (فياض) :

ـ داخليًا وخارجيًا ؟!

عاد الغريب يعقد ساعديه أمام صدره ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد .

قال الدكتور (فياض) ، فى تحدٍ سافر :

ـ وماذا عن فحص المادة الوراثية ؟!

صمت الغريب لحظة ، ثم أجاب :

ـ افحص ما يحلو لك .

هتف الدكتور (فياض) :

ـ حتى الثياب ؟!

فجأة ، تحوَّل ذلك الغريب إلى الشراسة والصرامة البالغة ، وهو يقول :

ـ اسمع أيهـا الطبيب .. هذا الأمر ، الذى تتحدَّث عنـه ، بكل العناد والتحدّى ، يتعلَّـق بـأمن الدولـة القومـى ، وغير مسموح لك بتجاوز الخطوط الحمراء فيه .. هل تفهم جيِّدًا ؟!

أجابه الدكتور (فياض) ، فى عنف مماثل :

ـ أثبت لنا هذا إذن .

انعقد حاجبا الغريب فى شدة ، فتابع هو فى صرامة متحدية :

ـ أبرز تحقيق الشخصية الخاص بك .

رمقه الغريب بنظرة مشتعلة ، ولكننى تدخَّلت ، قائلاً :

ـ إنه مطلب عادل .

نطقت عبارتى ، وكل ذرة فى كيانى تنتفض فى انفعال ، وكل خلية فى جسدى تتلهّف لمعرفة الحقيقة ..

حقيقة ذلك الغريب ، الذى ظلّ صامتًا جامدًا ، ينقل بصره بيننا ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

ـ فليكن .

دسّ يده فى جيب معطفه ، فتعلّقت به عيوننا ، ولكنه ترك يده فى جيب المعطف بضع لحظات ، على نحو أثار أعصابنا ، وجعل الدكتور (فياض) يهتف فى عصبية :

ـ هل تعدّ مسدس الأشعة الخاص بك للعمل ، قبل أن تطلقه علينا ، لتحوّلنا إلى كومتين من الرماد ؟!

ابتسم الغريب ابتسامة ساخرة باهتة ، وهو يخرج يده من جيب معطفه ، قائلاً :

ـ ربما .

ثم أخرج يده ببطاقة من البلاستيك ، اختطفتها أنا من بين أصابعه فى لهفة ، لنحدّق فيها معًا ..

كانت واحدة من بطاقات جهاز المخابرات العامة المصرية ، غير القابلة للتزوير ، تحمل رقمًا كوديًا ، مع صورة واضحة لذلك الغريب .

ولكن دون أية أسماء ..

وفى توتر ، غمغم الدكتور (فياض) :

ـ ومن أدرانا أنها بطاقة هوية حقيقية ؟!

أجابه الغريب فى حزم :

ـ سل صديقك ضابط الشرطة ؛ فهو يعلم أن هذه البطاقات غير قابلة للتزوير .

أجبته فى توتر :

ـ ولكننى لم أر إحداها من قبل .

قال فى صرامة ، وهو يعيد البطاقة إلى جيب معطفه :

ـ لقد رأيتها الآن .

كان من الواضح أن البطاقة سليمة تمامًا ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقى ، كان يرفض وبإصرار ، تصديق ما رأته عيناى ، منذ لحظة واحدة ..

شىء عبّر عنه الدكتور (فياض) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هذا لم يقنعنى .

سأله الغريب فى هدوء :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى حدة :

ـ لأن كونك أحد رجال المخابرات العامة ، لايحلّ هذا اللغز .. ما زالت ثياب القتيل غير مألوفة ، ولاتشبه أى شىء هنا .

التقى حاجبا الغريب ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. أظن أنه ليس أمامى سوى أن أعتمد على وطنيتكما ، وحفظكما للسر .

تبادلنا ، الدكتور (فياض) وأنا ، نظرة مفعمة بالانفعال ، قبل أن أهتف أنا :

ـ أى سر ؟!

بدا الغريب صارمًا حازمًا ، وهو يجيب :

ـ الدكتور (فياض) لم يكن مخطئًا ، فى كل ما تصوَّره .. هناك جزء من خياله أصاب الحقيقة .

شعرت بحلقى يجف ، على نحو مؤلم ، وأنا أحدّق فى وجهه ، فى حين انتفض جسد الدكتور (فياض) ، وهو يتراجع فى حركة حادة عنيفة ..

فما قاله ذلك الغريب كان مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة ..

★ ★ ★

٣ ـ السـر ..

لدقيقة كاملة تقريبًا ، ظللت أنا والدكتور (فياض) نحدّق فى وجه ذلك الغريب ، بكل دهشة الدنيا ، قبل أن يلوّح الطبيب الشرعى بسبّابته المرتجفة ، قائلاً :

ـ ذلك القتيل ليس بشريًا .. أليس كذلك ؟!

تراقصت ابتسامة باهتة ، على شفتى الغريب ، وهو يقول :

ـ كلاَّ .. ليس كذلك .

اتسعت عينا الدكتور (فياض) بدهشة أكبر ، فى حين تساءلت أنا فى حيرة :

ـ ما الذى أصاب الحقيقة إذن ؟!

ربَّت الغريب على جيب معطفه ، قائلاً :

ـ الثياب .

انتقل بصرانا إلى جيب معطفه ، وأنا أردّد فى حذر متوتر :

ـ الثياب ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. الثياب .

ثم أشار بيده ، وهو مستطرد :

ـ وسأشرح لكما الأمر كله .

جذب مقعدًا ، وجلس عليه فى هدوء ، وهو يتابع :

ـ منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر ، هبط طبق طائر هنا بالفعل .

هتف الدكتور (فياض) فى انفعال :

ـ هنا ؟!

أجابه بنفس الهدوء :

ـ نعم .. هنا .. فى قلب المنطقة الجبلية ، بين مدينتى (قنا) و(دشنا) .. ولقد رصدته قواتنا الجوية ، وخرجت ثلاث من مقاتلاتنا لمطاردته ، وعلى عكس المتوقَّع والمعتاد ، لم يحاول ذلك الطبق الطائر مناورة مقاتلاتنا ، أو حتى القيام بأى فعل ، مما دفعنا إلى محاصرة منطقة هبوطه ، والسيطرة عليه ، مع فريق من العلماء ، وقادة الطيران الحربى .

هتف الدكتور (فياض) فى لهفة :

ـ وهل عثرتم فيه على أحياء ؟!

هزَّ الغريب رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلاَّ .. عثرنا داخله على مخلوقين من عالم آخر ، تشبه أجسادهما أجسادنا ، إلى حد مدهش ، ولكنهما كانا قد لفظا أنفاسهما الأخيرة لسبب ما ، لم يدركه علماؤنا ، حتى هذه اللحظة .

سألته أنا :

ـ وهل كانا يرتديان تلك الثياب ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ تلك الثياب كانت أكثر ما أثار دهشة علمائنا ، ليس لطبيعة مادتها ، التى لم تعرف مثيلا لها على الأرض قط ، وإنما للخواص المدهشة ، التى تتمتع بها ، فهى متينة إلى حد مذهل ، حتى إنه لايمكن قطعها ، أو حرقها ، أو حتى خدشها ، بأية وسيلة معروفة لدينا ، كما أنها تجعل مرتديها أخف وزنًا ، وأكثر نشاطًا ، كما لو أنه لايرتديها فحسب ، وإنما هى تسرى فى دمه ، وتمنحه قدرات هائلة أيضًا .

تمتم الدكتور (فياض) فى انبهار :

ـ يا إلهى !

تنهَّد الغريب ، وقال :

ـ كان من الواضح أن التكنولوجيا ، التى حملها إلينا ذلك الطبق الطائر ، قادرة على دفعنا مائة سنة إلى الأمام ، وأن بعض الدول لن تسمح لنا بهذا قط ، وستسعى للاستيلاء على ما لدينا ، مهما كان الثمن .

هتف الدكتور (فياض) فى حماسة :

ـ مستحيل ! لابد من حماية مالدينا .. إنه أمر لن يتكرَّر .

أشار الغريب بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. وهذا ما فعلناه .. لقد أحطنا الطبق الطائر بكل وسائل الحراسة والحماية الممكنة ، وأحطنا كل ما يتعلَّق به بالسرية البالغة ، ولكن هذا لم يمنع مخابرات إحدى الدول الكبرى ، من اختراق نظامنا الأمنى ، وتجنيد أحد العلماء ، العاملين فى مشروع فحص ودراسة الطبق الطائر .

اندفعت أنا أقول فى انفعال :

ـ دعنا نخمّن .. إنه قتيل حادث قطار القصب .. أليس كذلك ؟!

أشار إلىَّ ، هاتفًا :

ـ بالضبط .

نقل الدكتور (فياض) بصره بيننا فى حيرة ، قبل أن يتساءل فى توتر :

ـ ولكن لماذا كان يرتدى تلك الثياب ؟!

هزَّ الغريب كتفيه ، قائلاً :

ـ كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة ؛ لسرقة الثياب الفضائية ، وكل أسرار الطبق الطائر .. لقد غافل الكل ، وارتداها تحت المعطف المميَّز ، الذى يرتديه الكل فى موقع الفحص ، وحمل كل مايمكنه من معلومات ، داخل حقيبة صغيرة ، وغادر الموقع .

ثم تنهَّد فى عمق ، قبل أن يتابع :

ـ واللّه (سبحانه وتعالى) وحده أعلم ، ما الذى كان يمكن أن يحدث ، لو لم تسقط عربة القطار عليه !!

غلفنا صمت عجيب ، بعد أن انتهى من حديثه ، ورحت أنا والطبيب الشرعى نتطلَّع إليه بعض الوقت ، حتى تساءل الدكتور (فياض) فجأة :

ـ ولكن لماذا لم يتمّ نقل الطبق الطائر إلى مكان آمن ، بدلاً من الانتقال لفحصه هنا ؟!

هزَّ الغريب رأسه ، قائلاً :

ـ لم يمكنا نقله من مكانه ، بأية وسيلة معروفة .

سأله الدكتور (فياض) فى سرعة :

ـ ولماذا ؟!

لوهلة ، بدا لنا أن الغريب سيجيب تساؤل الدكتور (فياض) ، إلا أنه لم يلبث أن هبَّ من مقعده بغتة ، قائلاً فى صرامة :

ـ لقد عرفتما ، ما يكفيكما .

وتركَّزت عيناه على وجهى ، وهو يضيف :

ـ والآن ، علينا أن نستعيد الحقيبة .

تبادلت نظرة متوترة مع الدكتور (فياض) ، الذى انعقد حاجباه لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ لو أنها تحوى تلك الأسرار ، فلابد من استعادتها بأى ثمن .

كلمـاته هذه أنعشتنى ، وبثَّت فى نفسى ارتياحًا افتقدته ، منذ وقع حادث القطار ، فشددت قامتى ، وقلت فى حزم :

ـ هيا بنا .

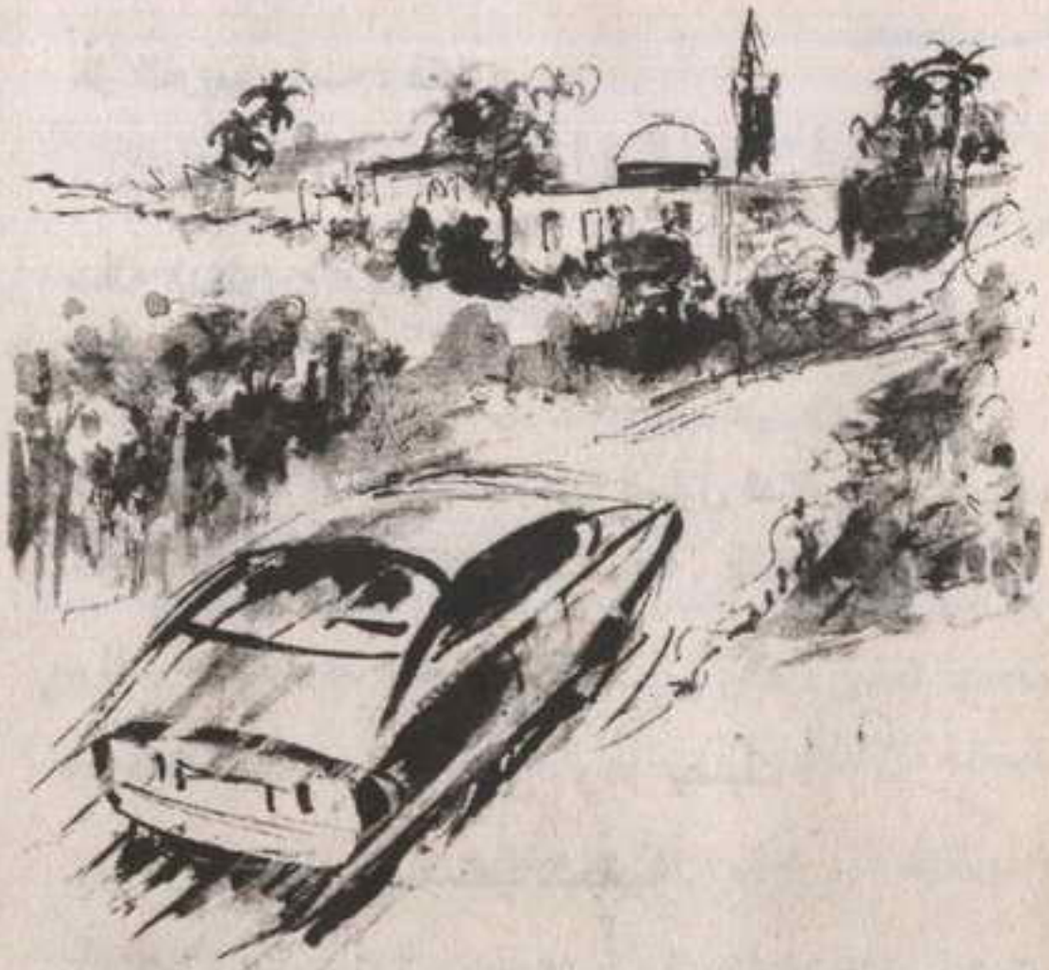

ومرة أخرى ، بهرتنى سيارة الغريب ، بسرعتها ونعومتها المدهشتين ، وخاصة عندما انحرفنا إلى الطريق الترابى ، الذى يقود إلى القرية ، دون أن تفقد انسيابيتها المبهرة ، فقال الغريب فى هدوء :

ـ هذه السيارة تبهرك .. أليس كذلك ؟!

أومأت برأسى إيجابًا ، فابتسم ، قائلاً :

ـ إنها سيارة تجريبية ..

لم أفهم تمامًا ما يعنيه ، فغمغمت فى حذر :

ـ تجريبية !!

اندفع يقول فى حماسة ، لم أعهده فيه من قبل :

ـ إنها أولى ثمرات التكنولوجيا ، التى حصلنا عليها ، من ذلك الطبق الطائر .. مادة عجيبة مدهشة ، ما إن يتم طلاء الإطارات بها ، حتى لاتلمس السيارة الأرض ، عندما تكتسب سرعتها .

سألته فى انبهار :

ـ ماذا تعنى بأنها لاتلمس الأرض ؟!

أشار بيده فى الهواء ، قائلا :

ـ وسـادة عجيبة ، مضادة للجاذبية ، تصنعها تلك المـادة ، عندما نطلى بها إطارات السيارة ، بحيث لاتشعر بالطريق قط .. أليس هذا مدهشًا ؟!

قلت فى انبهار :

ـ بالتأكيد .

استعاد حماسته ، وهو يقول :

ـ تصوَّر جيشًا كامـلاً ، يستخدم هذه المـادة ، التى تلغى عوامل مقاومة الاحتكاك تمامًا .. تخيَّل جيشًا أسرع وأقوى من كل جيوش الأرض .. جيش يمكن أن ينطلق فى كل التضاريس ، وكل أنواع المناخ ..

ثم استدار إلىَّ ، ونحن نقترب من القرية ، مستطردًا :

ـ سنصبح أقوى جيش فى العالم ، بفضل تكنولوجيا ذلك الطبق الطائر يا رجل .

هتفت :

ـ إلى هذا الحد ؟!

لوَّح بيده ، قائلاً :

ـ وربما أكثر من هذا الحد .

ثم استعاد صرامته بغتة ، وهو يضيف :

ـ المهم أن نستعيد تلك الحقيبة .

كلماته جعلتنى أشعر بأهمية وخطورة تلك الحقيبة ، ممـا جعلنى صارمًا قاسيًا ، على عكس المعتاد ، وأنـا أقف أمـام عمدة القرية ، قائلاً :

ـ اسمع يا عمدة .. الأمر ليس هزلاً .. (القاهرة) أرسـلت مندوبًا خاصًا ، ليتابع الموقف هنا ، ولابد من استعادة الحقيبـة بأى ثمن .. هل تفهم ؟!

ظلَّ الغريـب صامتًـا ، هادئًـا ، يتطلَّـع إلـى العمـدة ، الـذى رمقه بخوف حذر ، قبل أن يتساءل :

ـ وهل بلغت الأخبار (القاهرة) بهذه السرعة ؟! الحادث وقع منذ ساعتين فحسب ، و ....

قاطعته فى صرامة أكثر :

ـ قلت لك : إن الأمر مهم وخطير جدًا .

نقل العمدة بصره بيننا بضع لحظات ، ثم قال فى حذر أكثر :

ـ فليكن .. سننشر الخبر فى القرية كلها ، و ....

قاطعه الغريب هذه المرة ، بمنتهى الغلظة والخشونة :

ـ لاوقت لهذا العبث .

لم يرق لى تدخّله على هذا النحو ، الذى يمكن أن يهزّ هيبتى فى القرية ، لذا فقد قلت فى عصبية :

ـ العمدة سيتعاون معنا بالتأكيد .

هتف العمدة فى سرعة :

ـ بالضبط يا باشا .

ولكن الغريب قال ، بنفس الغلظة والخشونة :

ـ لو أراد التعاون معنا لفعل .. إنه يعرف أين الحقيبة .

انتفض جسد العمدة فى عنف ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ أنا ؟!

اقترب الغريب منه ، وهو يقول فى صرامة مخيفة ، امتزجت هذه المرة بغلظته وخشونته :

ـ نعم .. أنت تعرف أين تلك الحقيبة ، ولكن ما لاتعلمه هو أن وجودها هنا قد يعنى حياتك ، وحياة أهل القرية كلها .

امتقع وجه العمدة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أتهديد هذا ؟!

خشيت أن يتحوّل الأمر إلى نوع من التحدّى ، حتى لايتشبّث العمدة بكرامته الصعيدية ، ويتحوّل الموقف كله إلى ما لاتحمد عقباه ، فهتفت :

ـ ليس تهديدًا يا عمدة ، ولكنه ....

قاطعنى الغريب ، وهو يتطلّع إلى عينى العمدة مباشرة ، ويواصل بأسلوبه نفسه :

ـ كل ماتحويه الحقيبة لايمكن أن يفيدكم قط ، ولكن بداخلها مرض خطير ، سيصيب أى شخص يعبث بها ، وستنتقل عدواه بسرعة رهيبة ، حتى إنه لن تشرق الشمس ، حتى يصاب به كل شخص هنا .

ردّ العمدة فى شك حذر :

ـ مرض خطير ؟!

مال الغريب نحوه أكثر ، وهو يتابع :

ـ مرض يصيب الكبد ، ثم يدمّر الرئة ، خلال ساعة واحدة ،

فينزف المرء دمه من كل فتحات جسده ، ويختنق على نحو مؤلم ، ثم تبدأ أطرافه فى التساقط ، مع آلام رهيبة ، كافية وحدها لقتل أكثر الرجال صلابة وشجاعة ، فإن لم تفعل ، فالنيران التى ستشتعل فى كل مكان من كيانه ، ستلتهم البقية الباقية من إرادته ، وكل هذا خلال ثلاث ساعات من الإصابة فحسب .

اتسعت عينا العمدة عن آخرهما فى ارتياع ، فى حين هتفت أنا مبهوتًا :

ـ إنك لم تخبرنى بهذا قط .

التفت إلىَّ ، قائلاً فى صرامة :

ـ لم أشأ أن أصيبك بالذعر منذ البداية .

وعاد يدير عينيه العميقتين إلى العمدة ، مستطردًا :

ـ ولكننى كنت مضطرًا لتوضيح الحقيقة هنا .

خُيِّل إلىَّ أن ركبتى العمدة قد ارتجفتا ، من تحت جلبابه السميك ، وأن نظرة رعب قد أطلَّت من عينيه ، وهو يحدِّق فى عينى الغريب ، الذى سأله ، بكل انفعالات الدنيا :

ـ والآن ، أين تلك الحقيبة ؟!

ارتجفت شفتا العمدة ، وهو يغمغم :

ـ سأرسل فى طلبها فورًا .

تراجع الغريب معتدلاً ، وهو يقول فى صرامة :

ـ عظيم .

أثار الموقف كله دهشتى وتوترى ، وخاصة عندما بدا العمدة ، ذلك الرجل القوى المهيب ، مذعورًا كطفل صغير ، وهو يستدعى شيخ خفرائه ، ويطلب منه إحضار تلك الحقيبة الصغيرة من منزله فورًا ..

ومع انطلاق شيخ الخفراء لتنفيذ الأمر ، عربدت فى رأسى بعض الشكوك المخيفة ، على نحو جعلنى أسأل العمدة :

ـ قل لى يا عمدة ، هل يمكن الاتصال بـ (القاهرة) ، من هاتفك هنا ؟!

أشار الرجل بيده ، مجيبًا ، فى شىء من الشرود :

ـ بالتأكيد يا باشا .. تفضل .

أسرعت إلى حجرة السلاح ، حيث يوجد هاتف العمدة ، وأنا أعتصر ذهنى ، لاستعادة رقم هاتف منزل زميلى (أشرف) ، الذى يعمل والده فى المخابرات العامة ..

ومن حسن الحظ أننى قد تذكرتُه ..

وأجريت الاتصال ..

كنت أعلم أنْ (أشرف) ليس فى المنزل حتمًا، على الرغم من الساعة المتأخرة؛ لأنه يتولى أمر مكتب الوزير، خلال الفترة الليلية، ولكننى لم أكن أريد التحدُّث إلى (أشرف) ..

وإنما إلى والده ..

ولقد أجاب الرجل رنين الهاتف فى جزع، إلا أننى قدَّمت له اعتذارى وأسفى، ثم قلت فى اهتمام :

ـ سيِّدى ..لدى سؤال عن عملك، قد يندرج تحت بند السرية المطلقة، ولكن معرفته ستغيِّر الكثير من الأحداث هنا .

سألنى رجل المخابرات، فى حذر قلق :

ـ وما سؤالك ؟!

ازدردت لعابى فى صعوبة، قبل أن أسأله :

ـ هل هبط طبق طائر، فى صعيد (مصر) ؟!

لوهلة، خُيِّل إلىَّ أن الاتصال قد انقطع، ثم لم ألبث أن

سمعت صوت رجل المخابرات، والد زميلى (أشرف)، وهو يهتف بصوت لاهث :

ـ كيف علمت بهذا ؟!

كان الجواب، على الرغم من عدم مباشرته، يعنى أن كل ما رواه ذلك الغريب حقيقىّ، وعلى الرغم من هذا، فقد خفق قلبى فى عنف، وشملنى انفعال عجيب، وأنا أقول :

ـ وهل كان بداخله مخلوقان فضائيان، يرتديان ثيابًا فضية، غير قابلة للحرق أو القطع، أو ....

قاطعنى بانفعال عنيف :

ـ يا إلهى ! كيف بلغك كل هذا ؟! المفترض أن هذا الأمر ...

قبل أن يتمّ عبارته، انقطع الاتصال بغتة، ورأيت يد الغريب تنتزع سلك الهاتف، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ خُيِّل إلىَّ أنك كنت تتحدَّث مع شخص ما، حول الطبق الطائر، وتلك الثياب الفضائية، عبر هاتف غير مؤمَّن ... قل لى يا ضابط الشرطة :

ـ أين تعلَّمت قواعد الأمن بالضبط .

قلت فى حدة :

ـ لم أكن أتحدَّث مع شخص عادى .. إنه أحد زملائك ، فى جهاز المخابرات العامة .

أجابنى بنفس الصرامة الغاضبة :

ـ حتى هذا غير مسموح به .

ثم استدار عائدًا إلى مندرة العمدة ، وهو يضيف :

ـ هيا بنا .. لقد أحضروا الحقيبة بالفعل .

لم أصدق عينىَّ ، عندما خرجت لأجد الحقيبة فى يد العمدة ، الذى ناولها إلى الغريب ، وهو يقول مرتجفًا :

ـ لم نكن نعلم أنها بهذه الخطورة .

التقطها الغريب منه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا بأس .

سألته فى توتر :

ـ ألن تراجع محتوياتها ؛ للتأكُّد من أن كل شىء على ما يرام ؟!

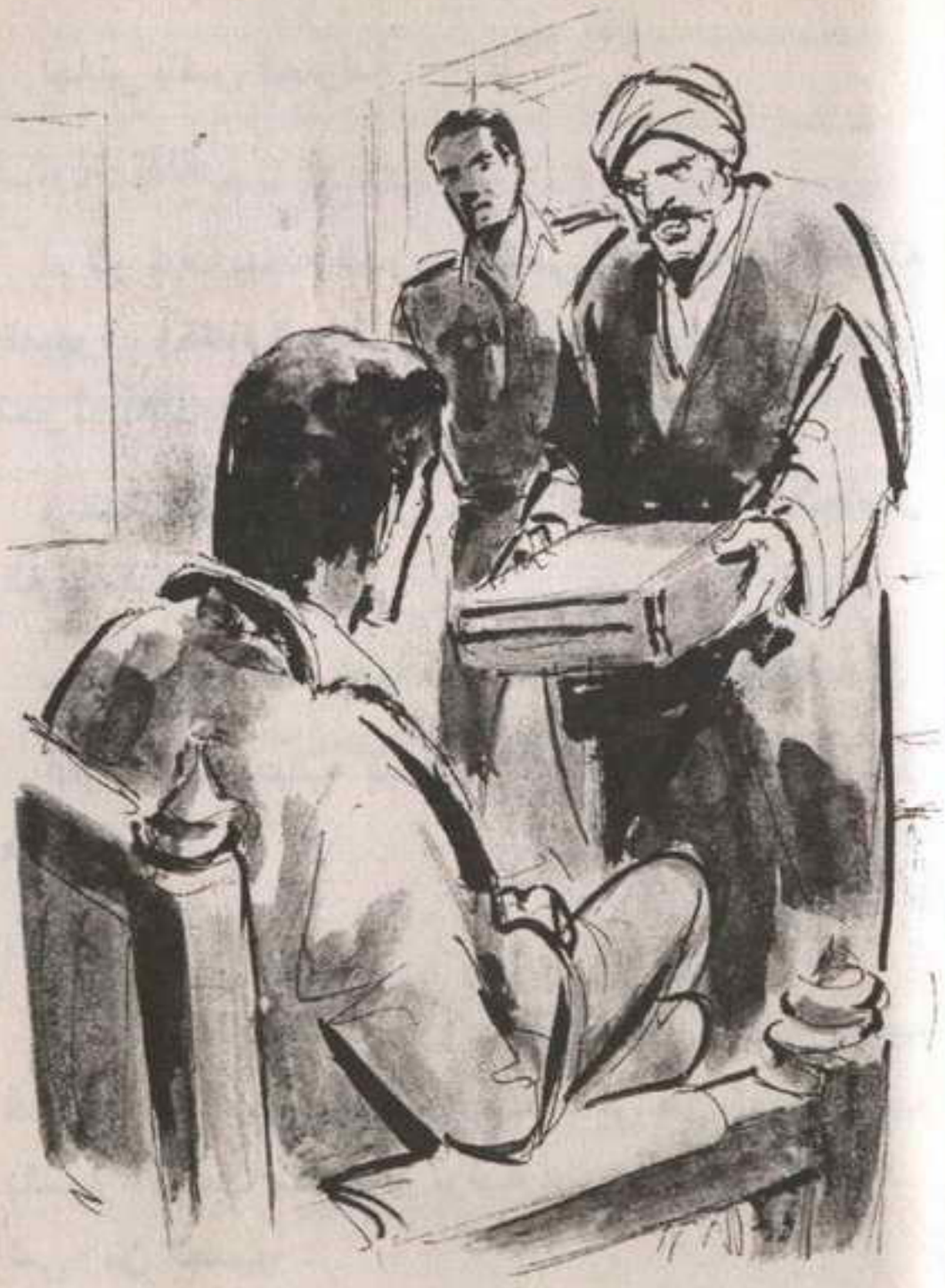

أجابنى بنفس الصرامة :

ـ إنه كذلك .

لم أدر كيف يمكنه الجزم ، ولكننى لحقت به إلى سيارته المبهرة ، وخلفنا العمدة ، الذى بدا لى شاحبًا ممتقعًا ، على نحو لم أعهده فيه أبدًا ..

وعندما دلفنا إلى السيارة ، تردَّد العمدة لحظة ، ثم سأل الغريب فى قلق :

ـ هل .. هل كانت قصة ذلك المرض الخطير حقيقية ؟!

أدار الغريب عينيه إليه ، فى بطء وهدوء ، قائلاً بكل صرامة :

ـ كلاً .

تراجع العمدة بدهشة مذعورة ، غير مصدِّق أن ذلك الغريب قد خدعه وعبث به ، بكل هذه البساطة ، فى حين انطلق الغريب بالسيارة مبتعدًا ، دون أن يوليه أدنى اهتمام ، فقلت فى شىء من العصبية :

من الواضح أنك مخادع كبير ..

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أخبرتك أننى رجل أمن مثلك ، ولقد أسندت إلىَّ مهمة محدودة ، ولابد من إنجازها ، وتحقيق النجاح فيها ، بأية وسيلة كانت ..

ثم التفت إلىَّ ، مستطردًا :

ـ ألم تكن لتفعل المثل ، لو أنك فى موضعى ؟!

غمغمت :

ـ بالتأكيد .

عاد يقود السيارة ، وهو يقول فى حزم :

ـ ثم إن هذه الخدعة أنجزت الأمر بسرعة .. أليس كذلك ؟!

غمغمت فى توتر :

ـ بلى .

ثم أطلقت زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدرى ، قبل أن أضيف :

ـ من حسن الحظ أن كل شىء قد انتهى بأمان .

ابتسم ابتسامة لم ترق لى ، وهو يقول :

ـ وبسرعة كبيرة .

عاودنى ذلك القلق المبهم ، وهو يتجه نحو استراحة نقطة الشرطة ، وتمتمت فى عصبية :

ـ أين ذهب الرجال ؟! الاستراحة تبدو مهجورة .

قال فى حزم :

ـ سيعودون .

لم أدر لماذا نطقها بكل هذه الثقة ، ولكننى كنت واثقًا من أنه مسئول ، بشكل أو بآخر ، عن اختفاء الجميع ، إلا أننى أخفيت هذا فى أعماقى ، وهو يوقف السيارة أمام الاستراحة ، فغادرتها متسائلاً :

ـ هل سنكتب التقارير المعتادة ؟!

كان رنين هاتف الاستراحة يتواصل من الداخل ، فأومأ هو برأسه ، قائلاً :

ـ كل شىء كالمعتاد .

لوَّحت بيدى ، ثم أسرعت إلى الداخل ، لإجابة رنين الهاتف ، ولم أكد ألتقط سمَّاعته ، وقبل حتى أن أنطق بحرف واحد ، سمعت صوت الدكتور (فياض) ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ (أحمد) .. أين أنت ؟! إننى أحاول الاتصال بك ، منذ ما يقرب من الساعة ، حتى إننى اتصلت بهاتف العمدة فى القرية ، ولكن الرنين يتصل دون جواب .

سألته فى توتر شديد :

ـ لقد وصلت على الفور .. ماذا هناك ؟!

صاح فى انفعال جارف :

ـ لقد خدعنا يا (أحمد) .. ذلك الغريب خدعنا .

قلت فى توتر بالغ :

ـ لماذا تقول هذا ؟! لقد اتصلت بنفسى ، بأحد رجال المخابرات العامة ، وتأكَّدت من أن ....

قاطعنى فى انفعال :

ـ لقد خدعنا يا (أحمد) .. لم تعد لدى ذرة من الشك فى هذا .

سألته بكل توتر الدنيا :

ـ لماذا يا دكتور (فياض) ؟! لماذا ؟!

صاح بكل انفعالاته :

ـ تلك الجثة .. إنها تشبهنا تمامًا ، فيما عدا أمرًا واحدًا .

سألته فى حذر :

ـ وما هو ؟!

هتف :

ـ البصمات .. ليست لديهم بصمات على الإطلاق .

اتسعت عيناى ، وأنا أقول فى ذعر :

ـ لا بصمات ؟! ما من مخلوق ..

قاطعنى هاتفًا :

ـ بل قل ما من بشرى يا رجل .. إنهما ليسا من البشر حتمًا .

قلت برعب :

ـ إنهما ؟! تقول إنهما ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ نعم .. الاثنـان ليسا من البشر .. لا القتيل ، ولا ذلك الغريب الآخر .

انتفضت كل خلية فى جسدى ، وهو يتابع بصوت لاهث :

ـ هل تذكر ذلك المقعد ، الذى جذبه الغريب فى معملى ؟! لقد قمت بفحصه جيدًا .. فحصت كل سنتيمتر منه ، بعد أن أدركت أمر انعدام البصمات هذا .. وهل تعلم ما الذى عثرت عليه ؟! لاشىء على الإطلاق .. الغريب لم يكن يرتدى أية قفازات ، ولكنه لم يترك بصماته على المقعد ، الذى جذبه أمام عيوننا .

غمغمت بذهول مذعور :

ـ ولكنه ترك لك جثة الآخر ، وكان يمكنك أن ...

قاطعنى بضحكة عصبية منفعلة ، قبل أن يقول :

ـ الجثة ؟! يا لها من مهزلة ! أنسيت ذلك الشىء ، الذى حقنها به أمامنا ... الجثة تتحلل يا رجل .. تتحلل بسرعة مخيفة ، لايمكن أن تحدث فى الطبيعة ، وقبل ساعة من الآن ، لن تبقى منها ما يكفى حتى لفحص مادتها الوراثية .

هززت رأسى ، وأنا أقول فى ذعر :

ـ مستحيل يا دكتور (فياض) .. مستحيل أن ....

قبل أن أتمّ عبارتى ، انقطع الاتصال الهاتفى بغتة ، كما يحدث فى كل مرة ، فالتفتّ فى سرعة إلى مدخل الاستراحة ،

واتنفض جسدى مرة أخرى فى عنف ، وأنا أحدّق فى وجه الغريب ، الذى قال بلهجة لم ترق لى ابدًا :

ـ ولماذا مستحيل !

قالها ، ووجهه يحمل ابتسامة كبيرة ..

وبغيضـة ..

إلى أقصى حد .

★ ★ ★

٤ـ الختـــام ..

على الرغم مما اشتهرت به ، فى أكاديمية الشرطة ، من الصلابة والشجاعة ، وجدت نفسى أرتجف ، وأنا أقف داخل الاستراحة الصغيرة ، الملحقة بنقطة الشرطة ، محدّقًا فى ذلك الغريب ، الذى ابتسم ابتسامة ظافرة ساخرة ، وهو يقول :

ـ كنت أتعشمّ أن تنتهى الأمور بهدوء ، دون أن أضطر إلى التدخُّل مرة أخرى .

قلت فى توتر بالغ :

ـ إذن فأنت بالفعل .. أنت .. أنت ..

أجابنى فى هدوء حازم :

ـ مخلوق من عالم آخر .. هذا صحيح .

كان الجواب متوقَّعًا ، بعدما أخبرنى بـه الدكتور (فيـاض) ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سرت فى جسدى ارتجافة ، ممتزجة بقشعريرة باردة كالثلج ، واتسعت عينـاى عن آخرهمـا ، حتى إننى شعرت بالألم ، وهو يتابع ، بنفس الابتسامة المقيتة :

ـ الجزء الذى أخبرتكما به حقيقى ، فقد هبط أحد أطباقنا الطائرة هنا اضطراريًا بالفعل ، وقواتكم تحيط به الآن ، وبداخله أحد رفاقنا ، الذى لقى مصرعه مع الهبوط العنيف ، أما الآخر ، فقد نجح فى الفرار ، مع حقيبة العينات ، وكان المفترض أن ألتقى به فى منطقة قريبة ؛ لانتشاله ، وإعادته إلى السفينة الأم ، التى تختفى خلف الجانب المظلم للقمر ، لولا حادث القطار ، الذى أودى بحياته ، على نحو غير متوقَّع على الإطلاق .

غمغمت فى مرارة :

ـ إذن فالسلطات الرسمية تعلم .

أطلق ضحكة قصيرة مكتومة ، قبل أن يقول :

ـ السلطات لاتعلم إلا أن الطبق الطائر هناك ، ولكنهم لم يعلموا بوجود أحد رفاقنا صريعًا داخله بعد ؛ لأنهم ـ وبكل بساطة ـ لم ينجحوا فى فتحه قط .

ثم شدّ قامته ، وهو يضيف :

ـ ولن ينجحوا .

قلت فى عصبية :

ـ لاتكن واثقًا هكذا .

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ليست مسألة ثقة ، ولكنها مسألة معرفة ؛ فطبقنا الطائر سينسف نفسه بنفسه ، فور عودتى بحقيبة العينات إلى السفينة الأم .

قلت فى توتر بالغ :

ـ هل يعنى هذا أنه هناك طبق طائر آخر فى الجوار ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال فى هدوء :

ـ ليس فى الجوار ، وإنما أمام باب استراحتك مباشرة .

اتسعت عيناى عن آخرهما ، وأنا أهتف :

ـ رباه ! هل تعنى أن ....

قاطعنى فى هدوء :

ـ نعم .. تلك السيارة ، التى رافقتنى فيها ، هى طبقى الطائر .

وأطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يضيف :

ـ هل علمت الآن لماذا انبهرت بها ؟! إنها تكنولوجيا تفوق تكنولوجيتكم الأرضية ، بألف عام على الأقل .

قلت فى توتر :

ـ الدكتور (فياض) كشـف أمرك منذ البداية ، وسيخبر العالم كله بما حدث .

بدا لامباليًا ، وهو يقول :

ـ طبيبك الشرعى هذا لم يعد يملك دليلاً واحدًا .. لاثياب ، ولاجثة ، ولاحتـى مـادة وراثيـة .. ولا أحـد سـيصدّقه ، لو أخبرهم قصة كهذه .. كل ماسيحدث هو أنهم سيعتبرونه مجنونًا ، وسيتعاملون معه على هذا الأساس .

قلت فى حدة :

ـ وماذا عن شهادتى ، إلى جوار أقواله ؟!

صـمت بضـع لحظـات ، على نحـو جعلنـى أتـأكّد مـن أننـى قـد أصـبت الهـدف ، وخاصـة عنـدما قـال فـى هـدوء :

ـ هذا كفيل بإشارة بعض الأقاويل والشكوك .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن كل شىء له حل .

لم أشعر بالارتياح لقوله هذا ، وتراجعت بحركة حادة ، عندما رفع تلك الحقيبة الصغيرة أمامى ، قائلاً :

ـ أخبرتك أن هذه حقيبـة العينـات ، ولكننـى لـم أخـبرك بنوع تلك العينات .

تطلّعت إلى الحقيبة فى توتر وفضول ، فوضعها أمـامى على المنضدة ، وضغط زرًا فى قمتها ، متابعًا :

ـ ومن المؤكّد أن هذا سيدهشك .

مع ضغطة الزر ، انفتحت الحقيبة على مصراعيها ..

واتسعت عيناى عن آخرهما ..

فتلك الحقيبـة الصغيرة كانت تحوى عينـة ، مـن كـل مايمكن أن تراه حولك ، فى منطقة كهذه ..

حيوانات ..

طيـور ..

نباتات ..

كل شىء تقريبًا ..

كل الأصناف والأنواع ..

ولكن فى أحجام صغيرة للغاية ..

وكلها ، فيما عدا النباتات بالطبع ، مخدَّرة نائمة ، ساكنة ..

وأمام ذهولى التام ، ابتسم الغريب ، قائلا :

ـ إنها لن تظلّ هكذا .. إننـا نستخدم أشعة خاصة ، لن تعرفها أية أجيال قريبة على كوكبك ، لتصغيرها على هذا النحو .. هذا يجعل نقلها وتغذيتها أسهل بكثير .. وهى فاقدة الوعى ؛ لأن أمخاخها تعجز عن العمل ، فى هذا الحجم الصغير ، ولكن عندما نصل بها إلى كوكبى ، سنعيدها إلى حجمها الطبيعى ، فتستعيد وعيها ، وتحيا فى بيئة صناعية ، تشبه البيئة هنا ، حتى يتمكّن علماؤنا من دراستها ، ومعرفة صور وطبيعة الحياة على كوكبك .

ظللت أتطلعً إلى تلك الحيوانات والطيور والنباتات المصغَّرة ، فى ذهول تام ، قبل أن أرفع عينىّ إليه ، وأرتطم بعينيه العميقتين ، وهو يقول :

ـ هل لاحظت ، الذى ينقص تلك العينات ؟!

اعتدلت فى توتر ، ووثبت يدى فى آلية إلى مقبض مسدسى ، وهو يضيف فى سخرية:

ـ عينة بشرية .

سحبت مسدسى فى سرعة ، ولكنه ضغط ذلك الزر فى الحقيبة ..

وسطع ضوء قوى فى وجهى ..

ثم أظلمت الدنيا كلها ..

تمامًا ..

★ ★ ★

لم أدر كم بقيت فاقد الوعى داخل تلك الحقيبة الصغيرة ، ولا كيف تمت تغذيتى ، حتى وصلت إلى هنا ..

إلى كوكبهم ..

لقد استعدت وعيى ، لأجد نفسى هنا ، فى ذلك الكوكب ، الذى يشبه كثيرًا كوكب الأرض ، باستثناء أنه لا يعرف الليل ..

أبـدًا ..

فهنا تشرق شمسان ، إحداهما فى حجم شمسنا ، والأخرى صغيرة بعيدة ، لا تمنح نفس الضوء والدفء ، ولكنها تمنع وجود الليل ..

وذلك النهار المستمر يكاد يصيبنى بالجنون ، خاصة وأننـى أقيم داخل منزل من الزجاج ، حتى يتمكّن العلمـاء هنـا من مراقبتى ودراستى طوال الوقت ..

هل يمكنك أن تتصوّر نفسك فى حياة ، يراقبك فيهـا الآخرون بلا انقطاع ؟! إنه أمر كفيل بإصابتك بالانهيار ..

وباليأس ..

ولكن الشىء الوحيد الطيب ، هو أنهم لا يؤذوننى أبدًا ، ولا يمنعوننى من فعل أى شىء كان ..

حتى عندما طلبت بعض الأوراق والأقلام ، منحونى ما يشبههما على الفور ، ولم يحاول أحدهم منعى من تدوين قصتى ..

ربما لأنهم لا يعلمون لماذا أدوّنها !

أنا نفسى أجهل لماذا أفعل ؟!

فبعد مرور ثلاثة أعوام تقريبًا ، على وجـودى هنـا ، فـى سجنى الزجاجى البغيض ، أصبحت واثقًا من أننـى سـأبقى هنا إلى الأبد ، ولن أعود إلى الأرض قط ..

ولكننى كتبت القصة ..

ومن يدرى ؟! ربما وصلت إليكم يومًا ..

ربمـــا ..

وقبل أن أختم تفاصيل تلك الليلة ، التى غيرت مجرى حياتى ومستقبلى كله ، أردت أن أخبركم أننى قد تعلّمت بعضًا من لغتهم هنـا ، وأدركت لمـاذا لا يخاطبوننى أبدًا باسمى ، الذى يعرفونه جيّدًا ..

ولماذا يصرون على مخاطبتى باسم (بلوكتا) !!

أو بمعنى أدق بهذه الصفة ..

فالكلمة (بلوكتا) ، تعنى معنى محدودًا ، بلغة هذا الكوكب ..

تعنى .. (الغريب) ..

★ ★ ★

[تمت بحمد اللّه]

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

أهداب (قصة قصيرة) ٥

ليس كل مرة (قصة قصيرة) ٢٢

العقرب :

مهمة رسمية (الحلقة الرابعة) ٣١

الزمكان (دراسة) ٧٣

مذكرات طبيب - فى صعيد مصر الجوانى

(الحلقة الثامنة) ١١١

وماذا بعد (دعوة) ١٣١

قصة العدد :

(الغريب) ١٤١

عزيزي القارئ (١) ٢١٦

عزيزى القارئ (٢) ٢٣٥

الثمن فى مصر ٣٠٠ قرشاً
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع